Princeton University Library
32101 058188119

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

This book is due on the latest date stamped below. Please return or renew by this date.

الإسلام والقومية

المؤلف :

الدكتور علي محمد نقوي

منظمة الاعلام الاسلامي

قسم العلاقات الدولية

بسم الله الرحمن الرحيم

الإسلام والقومية

Naqvi

المؤلف :

الدكتور علي محمد نقوي

(RECAP)
BP173
.55
.N3712

الكتاب: الاسلام والقومية.
تأليف: د. علي محمد نقوي.
ترجمة: حسين رفعتي.
عدد النسخ: ١٠،٠٠٠
المطبعة: سپهر/طهران
الطبعة الأولى: ربيع الثانى / ١٤٠٤هـ .

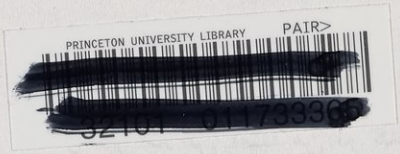
PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY PAIR>

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المنظمة

«يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عندالله اتقاكم»

هذه هي الحقيقة التاريخية والسنة الكونية المنسجمة مع الوجدان.

إنها عملية إقامة الموازين على اسس إنسانية أصيلة. فالانسان لا تتحقق إنسانيته إلا بالاتجاه الى الله، والكدح في سبيله، واكتساب صفة التقوى بكل ارادة.

فاذا كان هناك تفاضل فانه بالتقوىٰ، واذا كان هناك تجمُّع فيجب إن يكون على أساس من التقوىٰ لاغير.

أما المعايير الوهمية اللا إرادية كالقومية والعنصرية والوطنية واللون والمصالح المادية الضيقة وامثال ذلك فأقل مايقال عنها إنها عقبات في وجه الموازين الأصيلة، وانها انحرافات عن خط الفطرة الأصيل.

وقد استغل اعداء الدين، والاستعمار مثل هذه النزعات المنحرفة، وطرحوها بقوة، وسخروا لها عملاء «رسميين، أو مخدوعين» لتعميقها في وجود الأمة زعماً منهم بانها ستحل محل روابط التقوىٰ. وبالتالي تفقد الأمة أهم رابطة. وأقوىٰ علاقة، مما يسهل على الكفر مهمته في إذلالها و استعبادها واستغلالها.

واننا لنعتبر انتصار الثورة الاسلامية المباركة وانتشار الصحوة الكبرىٰ في أرجاء العالم الاسلامي بشير خير لخلاص أمتنا من نير هذه الأطروحات الوضعية المنحرفة، وسيرها نحو تطبيق الموازين الاسلامية في التعامل وفي كل مرافق الحياة.

واننا لنرجو من القارئ الكريم أن يطالع هذا الكتاب عسىٰ أن يساعده ذلك في تفهم الدوافع الحقيقية لهذه الدعوة الخطيرة وموقف الاسلام منها.

والله الموفق

منظمة الاعلام الاسلامى
قسم العلاقات الدولية

الإهداء

الى القوميين، والى كل الذين يعتقدون بأن لا تضاد بين الاسلام والقومية اقدم هذا الكتاب.

المؤلف

«النزعة القومية هي مصدر جميع مآسي المسلمين»

«اقصىٰ غايتنا تحقيق رسالتنا...»

«إن اولئك الذين يريدون احياء فكرة القومية، يقفون بوجه الاسلام...»

الامام الخميني

يوم القدس العالمي ١٩٧٩م.

«ليس للمسلمين أية قومية سوى الاسلام»

السيد جمال الدين الاسدآبادي

يستخدم اصحاب حانات الغرب في عصرنا الراهن اسلوباً جديداً، فلا حديث عن «اللات» و «هبل» أو «عُزّىٰ»،... الحديث يدور الآن، حول القومية والشيوعية، لان نحّاتي الحضارة الحديثة، نحتوا آلهة جديدة، وانّ اخطر آلهة من بين كل آلهة القرن العشرين تتمثل بآلهة القومية.

ثوبها كفن للعقيدة وقصرها قبر للدين.

هذه آلهة، انتجتها الحضارة الاستعمارية.

لهدم اساس دين الرسول الكريم.

فيا اخي المسلم!! انت تملك ثروة التوحيد العظيمة... موطنك الاسلام لاغير... جنستيك «محمدية»

و يا اخي المحمدي! شدّ عزمك، وحطم الصنم الكبير وكن ابراهيمياً.

«مقاطع من شعر حر مترجمة من اللغة الاوردية

«ليست قلوبنا من الروم أوالهند اوالشام»

«ولايَحُدُّنا شيىء أوحَدٌ سوى الاسلام»

الشاعر اقبال لاهوري

الفهرست

الموضوع	الصفحة
المقدمة	١٣
الفصل الاول: ملاحظات في تأريخ القومية	١٧
١ــ ظهور القومية كمذهب	١٧
٢ــ القومية وليدة الفراغ الفكري في الغرب	١٩
٣ــ علاقة القومية بالاستعمار	٢١
٤ــ علاقة القومية بالرأسمالية	٢٥
٥ــ القومية في القرن العشرين	٢٨
الفصل الثاني: دخول القومية الى العالم الاسلامي:	٣١
١ــ القومية من صادرات الاستعمار	٣١
٢ــ الفرنسيون مؤسسو القومية في مصر	٣٤
٣ــ ثلاثة يهود أثار واالفكر القومي في تركيا	٣٧
٤ــ الاستعمار البريطاني ورواية القومية العربية	٤١
٥ــ الاستنتاج	٤٧
الفصل الثالث: اسس القومية وخصائصها	٥١
١ــ تعريف القومية	٥١
٢ــ علاقة القومية بالعلمانية	٥٤

٣ــ الاسس والخصائص الاخرىٰ للمبدأ القومي ٥٥
٤ــ القومية شبه دين ٥٦
٥ــ القومية نموذج لنظام قبلي متطوّر ٥٧
الفصل الرابع: فلسفة دحض القومية ٥٩
١ــ الفرق بين حب الوطن والنزعة القومية ٥٩
٢ــ القومية تعتمد الغريزة البهيمية للبشر ٥٩
٣ــ اسس الوحدة الجماعية في المجتمع الانساني ٦٠
٤ــ العقيدة اساس الوحدة، لاالدم والتراب ٦١
٥ــ الصدفة الطبيعية هي اساس القومية لا «الخيار» والارادة
الواعية للانسان ٦٤
الفصل الخامس: معضلات القومية ٦٥
١ــ لامنطقية الأسس القومية ٦٥
٢ــ الوحدة على الاسس القومية تنتهي بالفرقة والخلاف ٧٢
٣ــ القومية تنتهي بنقض الفرض ٧٣
٤ــ هل تستطيع القومية لوحدها تفجير الطاقات والابداعات لدى
أبناء الشعب؟ ٧٦
الفصل السادس: مساوىء القومية: ٧٧
١ــ المحورية والحكم المسبق ٧٧
٢ــ الشعور بالتفوق الذاتي وتزييف التأريخ ٧٧
٣ــ التعصب القومي أو «العصبية الجاهلية» ٧٩
٤ــ النزعة القومية تؤدي الى التفرقة العنصرية. (التمييز العنصري) ... ٨٠
٥ــ النزعة القومية تؤدي الى التسلط وانشاء المستعمرات ٨١
٦ــ تحديد الافق الفكري للانسان ٨٣
الفصل السابع: الاسلام والقومية: ٨٥
١ــ الاسلام والقومية: قطبان متقابلان ٨٥

٢ــ مكافحة الرسول للنزعة القومية عند قريش ٨٨
الفصل الثامن: أسس المذهب القومي من وجهة نظر القرآن والحديث ٩٣
١ــ الوحدة الانسانية أم الوطنية والعنصرية ٩٣
٢ــ ماهو المحور الرئيسي للوفاء: «الله» أم «الوطن»؟ ٩٨
٣ــ ماهو عامل الوحدة: «العقيدة» أم «القومية»؟ ١٠١
٤ــ التعلق بالتراب من منظور إسلامي ١٠٩
٥ــ علائق الدم والعنصر من منظور اسلامي ١١٤
٦ــ العصبية الجاهلية. ١١٦
٧ــ هل يستطيع الفردان يكون مسلماً وقومياً في وقت واحد؟ .. ١١٨

المقدمة

«القومية» من القضايا المطروحة في مجتمعنا المعاصر، وتستوجب دراستها باسلوب علمي — تحليلي و تحقيقي فما هو تعريفها؟ وماهي اسسها؟ والى اي حد يقبل الاسلام المبادئ والأسس القومية؟ وهل هناك تعارض بين «الاسلام» والقومية؟ هل يمكن للفرد ان يكون مسلماً مؤمناً وقومياً معتقداً في آن واحد؟ ما هي نقاط الضعف والقوة في المبدأ القومي؟ وكيف كان تطوره وانتشاره في البلدان الاسلامية؟ وهل يمكن خلال الدراسة والمطالعات التحقيقية — بعيداً عن الصخب الاعلامي كما سيتضح — ان نجد موطئ قدم للقومية في مجتمع تفجرت فيه ثورة اسلامية وهو في طريقه لتطبيق النظام الاسلامي والقيم الاسلامية؟؟

* * *

«الشيوعية» و«القومية» مذهبان غربيان معاصران. والاسلام لايواجه —اليوم— «الوثنية» أو «المسيحية» أو الدين «الزرادشتي» وانما يواجه الشيوعية والقومية معاً. ومع ان مجموع المسيحيين وصل الى المليار، لكن المسيحية «كدين» و «عقيدة» ليست اليوم فاعلة ومؤثرة كما كانت في السابق.

فالمسيحية ليست —اليوم— المحرك الفعال في حياة الغرب ولا الدافع والمحفز في السلوك الاجتماعي — السياسي العام. ان «الدين الفاعل» الآتي

من الغرب، هو المحرك والمغير و يتمثل بمبدأي «القومية» و «الشيوعية».

ومن هنا تتضح لنا ضرورة دراسة ماهية القومية. والاسلام كعقيدة يواجه اليوم— بشكل اساسي —مبدأي «القومية والشيوعية».

فالاستكباران الشرقي والغربي يسعيان من خلال نشر وفرض هذين المبدأين ، الىٰ طرد الاسلام من الساحة ليتحوَّل كالمسيحية في الغرب، الى دين ميت وخالٍ من اي محتوىً أو مضمون، لاينفع الا لأداء العبادات في البيوت والمساجد، لااكثر، و لينمحي بعدها من الوجود شيئاً فشيئاً.

ان الفكر القومي هو الفخ الذي نصبه «الاستعمار» لانزال الضربة من خلاله بالاسلام، وتحقيق الحلم الذي فشل على مر العصور بالحروب الصليبية. فالاستعمار يسعىٰ بصبر لنشر الفكر القومي لتحقيق مآربه الدنيئة. وان القاء نظرة الى ماكتبه المستشرقون يجعلنا نفهم هذا الحلم الغربي، ونستوعب ابعاد المؤامرة.

والقومية ليست إلاّوسيلة لتدمير وحدة الامة الاسلامية وعائقاً امام اتحاد العالم الاسلامي الذي يهدِّدُ مصالح الاستكبار، واضعاً — بالقوة— السياسة العالمية للاستعمار في مواجهة خطر اكيد.

ومع انتشار النزعة القومية؛ تمكن الاستعمار من تبديل العالم الاسلامي المتحد الى قطع متناثرة واجزاء صغيرة ثم احتوائها الواحدة تلو الاخرىٰ.

ان الابعاد الخطرة لهذا الفكر في العالم الاسلامي تجعل إزاحة الستار عن حقيقة «النزعة القومية» ضرورة ملحة.

إنَّ الثورة الاسلامية في ايران استلهمت حركتها العظيمة من الاسس التوحيدية للاسلام، و بدهيٌّ أنها لم تكن — قالباً ومضموناً— ثورة «قومية» وانما «توحيدية» خالصة. فالاسلام وحده كان ومايزال، الرصيد للثورة لا «القومية» وكان القوميون في مؤخرة الثورة لا في طليعتها، ناهيك عن سعيهم

الحثيث لإيقاف مسيرة الثورة المستمرة نحو الكمال.

ومن ناحية الاهداف فان الثورة الاسلامية الايرانية ثورة عالمية لا تتحدد في ايران، بل تحمل على عاتقها رسالة عالمية. فهي طليعة بركان جديد، انفجر في صباح، على افق الشرق ليمتد وينتشر في ربوع الوطن الاسلامي واينما يعيش المسلمون.

ولهذا تجب علينا دراسة اسس وحدة العقيدة وعالمية الاسلام بدقة بالغة، واجراء تحقيق معمق حول كيفية علاقة الاسلام بالقومية.

ان انتشار الافكار القومية والليبرالية، يجرّد الثورة عن ماهيتها الاسلامية. ومن هنا تتحتم —كواجب اسلامي ثوري— المجابهة العقائدية— السياسية لهذه الافكار المسمومة بدون هوادة، شريطة ان تكون «بوعي» و برصيد فكري ورسالي ثاقب ليتعرف الايرانيون وغيرهم على الاسباب الكامنة وراء مناهضتنا للافكار والقومية.

ليس «للقومية» ولا «للشيوعية» موضع قدم في النظام الاسلامي والمجتمع التوحيدي والمبدأ الوحيد المقبول والمتغلغل في النفوس من الناحيتين الاجتماعية والسياسية هو الاسلام لاغير.

«إنَّ الدينَ عِندَاللّه الإسلام»

لكنه على المستوى الشخصي يتمتع كل انسان بحرية التفكير والتعبيرعن الآراء دون فرض او اكراه.

«لا اكراه في الدين».

فينبغي دراسة نقاط الضعف والقوة في العقائد الحية على اساس المنطق السليم والنظرة المنصفة ومن ثم عرضها على المجتمع ليميز الحق من الباطل.

«الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه»

ومن هذا المنطلق ايضا تنبغي دراسة وتقويم الأفكار والعقائد بنظرة منفتحة دون الحكم المسبق الممزوج بالتعصب وذلك لبيان الموقف الاسلامي الأصيل منها.

واملنا في هذه الكتابة توضيح الابعاد المختلفة لهذة القضية وان تكون خطوة لاثراء بحوث العقيدة الاسلامية .

وافوض امري الىٰ الله وعليه أتكل

علي محمد نقوي

٢٣ رمضان المبارك/١٤٠١هـ .

الفصل الاول

ملاحظات في تأريخ ظهور وانتشار القومية

١ — ظهور «القومية» كمبدأ:

لوتتبعنا النظام القبلي اليوناني (ونظام الدو يلات)[1] عبر آلاف السنين لوجدناه يضم بعض خصائص القومية، لكن «القومية» كفكرة وعقيدة سياسية —اجتماعية ظهرت في الشرق بعد الثورة الفرنسية* كان «روسو» اول رُسُل القومية، حين اكد كثيرا على ضرورة وحدة وتلاحم و «تعصب» الجموع الشعبية، وأصَرَّ على لزوم تعلق الانسان بمسقط رأسه وموطن نشأته، وان «الوطن» يجب ان يكون المحور والمنطلق الاصيل لحب واخلاص الفرد والجماعة، وأوصل «روسو» ذلك الى حد «الواجب الديني المقدس» رافضاً بقوة فكرة الارتباط الانساني أو «المجتمع الديني».

ومع نجاح الثورة الفرنسية تكونت اغلب الاسس والمبادئ والخصائص لفكرة القومية، حيث طبقت لاول مرّة بشكل عملي. فإثارة المشاعر والحماس تجاه الوطن والعَلَم، والتقدير والاحترام للابطال القوميين، وتدو ين النشيد القومي والتأكيد على قدسية اللغة والعنصر الفرنسيَّيْن، وابتداع المراسم والاعياد

---

*بعض المحققين يعتبر حركة الاصلاح (Reformation) هي بداية ظهور القومية، والبعض الاخر يعتبر حادثة Westphalia التي وقعت في عام ١٦٤٨ البداية، لكن الغالبية تعتبر الثورة الفرنسية منعطفاً لظهور القومية.

القومية الكبرىٰ على شاكلة المراسيم الدينية، والتفاخر بتأريخ فرنسا، والايمان بالرسالة العظيمة للشعب الفرنسي كل هذه المبادئ والاسس الرئيسية والفرعية للقومية، ظهرت الواحدة تلو الاخرى في غضون الثورة الفرنسية. لكن مع وصول جاكوبن[٢] وامثاله الى سدة الحكم، والتقهقر الذي حدث عقب الثورة، تجلت بوضوح مساوئ القومية في خطواتها الاولىٰ. «فجاكوبن» وامثاله استخدموا القومية كوسيلة لإثارة المشاعر والاحاسيس الشعبية والتعبئة العامة. وبالتالي الاعتداء على الشعوب المجاورة، لتنفيذ الاطماع التوسعية من خلال القتل والافساد والاستبداد.

وثبت بان المشاعر القومية تؤدي الى الحروب والاعتداءات والاستكبار، لان محور قرارت القادة امثال «جاكوبن» ينحصر في المصالح الفرنسية وحدها.

ونتيجة لانتشار نفوذ الثورة الفرنسية في غرب المعمورة، سرت فكرة القومية بسرعة فائقة، اكثر من الافكار التحررية والديمقراطية. وبظهور نابليون* امتد زخم المسار القومي بقوة وشدة كبيرتين في الغرب. ونابليون هو اول من بذر بذور المذهب القومي في العالم الاسلامي فضلاً عن نزعته القومية التي كانت الارضية المناسبة للاطماع التوسعية والحروب والاعتداءات. فهو الذي نفث روح العظمة في نفوس ابناء الشعب الفرنسي. مما اثار المشاعر القومية لدىٰ سائر الشعوب الاخرىٰ. ففي المانيا وايطاليا، ايضاً انتشرت المشاعر القومية بسرعة. وبذلك اصبحت القومية مبرراً للاعتداء، ودافعاً لاراقة الدماء، والصراع على السلطة والنفوذ.

لقد سمّي القرن التاسع عشر بـ «عصر القومية الذهبي»*. ففي هذا القرن وضع كل من جفرسون[٣] و پين[٤] اسس القومية الامريكية، وفي بريطانيا

---

* Salow Baron Modern Nationalism p.43, Newyork 1927.
* Hans Kohn: The idea of Nationalism: A study in its origin and background p116, Newyork 1944.

اضاف القسيس جريمى بنثام[5] ابعاداً جديدة للقومية، وقد وصلت القومية الى ذروتها بظهورروليام غلاد ستون[6] ، وانتشرت في جميع ارجاء اوربا المركزية والغربية كعقيدة ونهضة فكرية.

وقد اعتبرَ «مازيني»[7] الايطالي، احد كبار المنظرين للعقيدة القومية والحركة الفكرية في القرن التاسع عشر، اما بقية مفكري القومية وحملة رايتها في هذا القرن فهم غاريبالدي[8] الايطالي وفكتور هيجو[9] الفرنسي وبسمارك[10] الالماني.

وهنا اصبحت القومية المحرك للاحداث والسبب في انبثاق جميع التطورات في القرن التاسع عشر. فبلجيكانالت استقلالها، وفي امريكا الجنوبية والوسطى اعلنت المستعمرات الخاضعة للنفوذ البرتغالي والاسباني استقلالها بقيادة سيمن بوليفر[11] وجوز مارتين[12].

لكن تأجيج المشاعر والنعرات القومية واثارتها من قبل الدول الغربية، في المستعمرات الاوربية الخاضعة للامبراطورية العثمانية كاليونان وبلغاريا والمجر والكرواتيّين[13]، دفعت هذه الدول للتفكير بالاستقلال.

وتبين عبر التاريخ ان النتائج السلبية للعقيدة القومية هي اكبر بكثير من نتائجها الايجابية. فتشكيل المستعمرات، واعتداءات فرنسا وبريطانيا، والاطماع التوسعية لنابليون الثالث وبسمارك اظهرت بجلاء أن شعارات القومية والليبرالية الغربية الخداعة خالية من أيّ مضمون تحرري، وليست إلا ستاراً وذريعة لاستعباد الشعوب المستضعفة.

٢ ــ القومية وليدة الفراغ الفكري في الغرب.

ظهرت «القومية»، «كمذهب» و «مبدأ» و «عقيدة شبه دينية» اختلقها الغربيون لسد الفراغ الفكري. والانسان لايستطيع العيش دون ان يكون له «دين» أو «هدف» أو «فكر» يلتزم به ويتعصب له. ففي القرون الوسطى كانت المسيحية في الغرب تُعْتَبر «الدين» و «المذهب» و«العقيدة» و

«الفكر» و «الهدف»، لكنها — اي المسيحية — كانت ذات بُعدٍ واحد، وغير متكاملة. لذلك لم تستطع ان تبقى وتدومَ كعقيدة حية وهدف شمولي عام.

لكن، وبعد عصر النهضة والتغييرات التي تلتها، واجهت الكنيسة ضربات قاصمة، ولم تبق المسيحية كعقيدة حية في اوربا، وكما اسلفنا فان المسيحية كانت غير متميزة بالحيوية اللازمة ولا بالديناميكية لاثارة «التعصب والالتزام» والحماس والتلاحم بين الناس.

وبعد عصر النهضة أبعد الاوربيون المسيحية عن معترك الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية والعاطفية، للانسان الغربي، تاركةً وراءها فراغاً لايملكون شيئاً يتمسكون به ويتفاعلون معه، وانهم فقدوا مقومات القوة المطلوبة لاثارة مشاعر الناس وحماسهم. فالمسيحية أبعدت عن حياة الناس من جهة، والانسان لايستطيع العيش في فراغ دون اعتناق فكر كامل، من جهة اخرى، الامر الذي حدا بـ «آذر» ناحت اصنام الفكر الغربي، الى نحت صنم القومية وعرضه «كدين» و«رب» جديد للغرب. وقد لاقت فكرته هذه الرضا والقبول من قبل عطشى الفكر!!! لكن سرعان ما ظهر الفكر الماركسي ليسد الفراغ.

وهذان الفكران نتجا عن ضعف المسيحية وفشلها في ارواء عطش الفكر الغربي.

اما الشرق الاسلامي فلم يعانِ من فراغ كهذا اطلاقاً، إذ ان الاسلام كعقيدة فاعلة ومحركة وشاملة، كان حاضراً، وان توفر ديناميكية عظيمة وهائلة فيه، مكّنه — خلال قرن من ظهوره — من الانتشار في ارجاء المعمورة ابتداءاً من شمال افريقيا الى اقاصي نقاط آسيا، ومن اسبانيا الى بلاد المغول، موحداً هذه الاراضي، وصانعاً من جميع القوميات والالوان واللغات والحضارات «أمة» واحدة.

ومازال الاسلام في العالم متميزاً بقدرة فائقة — اكثر من أية عقيدة اجنبية اخرى — على إثارة الحماس والمشاعر الثورية والتلاحم المعنوي. كما وانه

يستطيع ترسيخ حب التضحية في نفوس اتباعه الى حد الاستشهاد في سبيل العقيدة. ولهذا السبب فان العالم الاسلامي في غنىً عن الفكر القومي الذي يعتبر بضاعة غربية ناتجة عن ظروف واوضاع خاصة بالغرب وحده.

ان القوميين وجميع «المثقفين المرتبطين بالغرب» في العالم الاسلامي يتجاهلون الخصائص الحضارية لبلدانهم، و يتصورون، أن نجاح اية تجربة في الغرب يمكن تكرارها في الشرق.

لكن هذه النصيحة لا تنفع او تؤثر بهؤلاء المثقفين .إلاّ ان هؤلاء (المثقفين) —المقلدين للغرب تقليداً اعماهم واصمّهم وافقدهم قدرة التمييز— قد فاتهم ان للغرب ظروفا واوضاعاً تختلف تماما عن ظروف وخصوصيات العالم الاسلامي.

فالغرب كان يعاني من تقهقر المسيحية وانحطاط الكنيسة، بينما يزدهر الاسلام الثوري والفعال في الشرق، فهؤلاء يصعب عليهم استيعاب الحقيقة التالية وهي، ان المسيحية والاسلام ظاهرتان متباينتان.

ففي حين لانجد في المسيحية إلا مجموعة وحفنة من «الجزميات» والطقوس الدينية للكهنة والرهبان، نجد الاسلام عقيدة حية فعالة و نظاماً فكرياً كاملاً وشاملاً وعمليا، يضم الفرد والمجتمع على السواء.

٣— علاقة القومية بالاستعمار:

لعب «الاستعمار» و «الرأسمالية» دوراً هاماً في نشر الافكار القومية، ففي القرن التاسع عشر ظهر تنافس مذهل بين الغربيين لتوسيع المستعمرات ونهب ثروات دول العالم الثالث. وبذلك اجتاحوا دول آسيا وافريقيا لاستعباد شعوبها واستغلالها.

وعليه فانهم كانوا في حاجة ماسة الى رصيد فكري قوي، يكون دافعاً يبررون به جرائمهم ونهبهم لخيرات هذه البلدان، ومحفزاً لهم لتوسيع رقعة مستعمراتهم وتهيئة الاجواء الملائمة لسلب الشعوب خيراتها.

هكذا، وفي خضم ضجة الاستعمار، وصلت القومية الى ذروتها كفكر ودين غربيين، ولعب الفكر القومي ثلاثة ادوار مهمة في مجال الاستعمار.

١ — القومية مصدر الاستعمار:

فالمشاعر القومية الجياشة، والشعور بالتفوق العرقي والعنصري، والتعصب والتفاخر بالتاريخ والحضارة التي تعتبر جميعها وليدة القومية، وفّرت الارضية الملائمة للاطماع السياسية التوسعية والأنانية الاقتصادية. اذن فالامبريالية تعتبر وليداً غير شرعي للاتجاهات القومية.

ب — اعتبرت القومية مبرراً قوياً للاستعمار، وقد اتخذ المستعمرون الغربيون من شعارات «المصالح الوطنية» و «اعادة مجد الوطن» ذريعة لممارسة اعمال العنف الوحشي.

ج — ومع اثارة الاحاسيس القومية وتأجيج المشاعر وروح التضحية في سبيل «الوطن»، يتوفر الحس اللازم للمضي نحو انشاء مستعمرات جديدة، مما يجعل المعنويات عند الانجليز والفرنسيّين والالمان قوية في التنافس الحاد من اجل السيطرة على قارتي آسيا وافريقيا.

كتب المفكر الغربي فرانسيس كوكر[١٤] يقول:

«اقتنع الكثير من القوميين في القرن التاسع عشر، اثر المشاعر القومية المتطرفة، بان الشعوب المتطورة والتي تتميز بتاريخ و تراث عظيمين وتحظى بتفوق عنصري وقومي، لا يحق لها حصر قدراتها وامكانياتها داخل حدودها. إذ ان الواجب «القومي والوطني» لا ينحصر بالدفاع عن سيادة الوطن وحفظ الاستقلال فحسب، وانما توجد هناك رسالة عالمية و يتوجب عليهم بسط نفوذهم السياسي و حضارتهم القومية — وفق ما تتطلبه المصلحة — على جميع الدول المتأخرة، حتى وإنْ تم ذلك باستخدام القوة والعنف.»

وهذا النوع من التفكير ليس إلاّ نتيجة منطقية للتصور القومي، ومصدراً تبريرياً للاستعمار والوحشية ونهب الثروات من قبل الامبرياليين.

ولو نظرنا الى كتابات مبتدعي المذهب القومي ومقالاتهم، في القرن

التاسع عشر، لرأينا بوضوح انهم روَّجوا هذه الفكرة بقوة، مصرِّين على الادعاء بان الواجب القومي لا يحتم علينا الدفاع عن حدودنا فحسب، بل القيام بعمليات عسكرية وسياسية خارج الحدود من اجل حفظ وتثبيت مجد الوطن.

يقول الدكتور بج هات « Bidgehet »[١٥] الذي يُعدُّ من رواد الفكر القومي في القرن التاسع عشر:

«ان الاكتفاء بحفظ سيادة الوطن، ليس كل شيء، لان التخلُّف عن التنافس الاقتصادي — السياسي العالمي، يعني عدم اداء الواجب الكامل في حراسة العظمة والهيبة التأريخية للوطن.

فعدم الاقدام على التوسع يعني تعريض «الغرور القومي» للصدمة، والموت في معركة تنازع البقاء بين الدول. وان الاقتدار والمخاطرة والنزعة الحربية، هي الكفيلة بالابقاء على غرورنا القومي وحفظه*»

والقومية وسَّعت نظرية داروين حول بقاء الأصلح في الحدود الاجتماعية — السياسية، وفي المانيا روَّج « آرنست هِيكِل[١٦] هذا المفهوم بقوة، فهو يقول:

«يحق للشعوب القوية والمقتدرة — فقط — ان تعيش، وتدمر وتفني الشعوب الضعيفة والمتأخرة».

وهذا هو عين «الابادة الجماعية للحضارة الجديدة».

اما كارل بيرسون[١٧] — احد قادة الفكر القومي — فهو الآخر يعتبر تنازع البقاء وبقاء الأصلح «كقانون طبيعي في علاقات الشعوب».

ونتيجة لنظريات القوميِّين، اجتاحت اوربا في اواخر القرن التاسع عشر، موجة جديدة من التوسع والاعتداء.

ففي زمن حكومة غليدستون، استطاعت القومية الانجليزية ان تستعمر الهند ومناطق اخرى وتخضعها لسلطة التاج البريطاني.

---

* Francis W.Cooker: Recent Political Thought P 443-48 Newyork 1934.

وبتشجيع من بسمارك القومي، اتجهت المانيا الى التوسع، وفي افريقيا امتدت يدفرنسا لاستعمار مناطق كثيرة، واحتل الانجليز قناة السويس.

وبينما كانت المانيا تفكر في ايجاد «امبراطورية الآريين المترامية» ابتداءاًببرلين وانتهاءاً ببغداد، دخلت أمريكا —القوة الحديثة— وبتأثير من الحماس القومي، حلبة السباق لانشاء المستعمرات، فاحتلت الفليبين ومناطق من أقصىٰ آسيا.

ونتيجة للاطماع التوسعية الناتجة عن الفكر القومي ظهر الصراع بين فرنسا و المانيا من اجل السيطرة على المغرب، كما حصل صراع بين الانجليز والروس للقيمومة على ايران... كل هذا هو من عجائب المذهب القومي واحابيله!!!

كتب المؤرخ الاجتماعي جوزيف ليتن[18] يقول: *

«كانت القومية السياسية —الاقتصادية طوال القرن التاسع عشر، متمثلة بالمعارك وانشاء المستعمرات، ثم اصبحت مصدراً للتوسع وتعارض المصالح للدول المختلفة».

وكان بعض مشاهير المذهب القومي في القرن التاسع عشر وراء انتشار موجة الاستعمار المعتدي، واصبحوا بذلك من كبار المجرمين بحق التأريخ.

وغليد ستون — الذي يعتبر من احد ابرز حملة راية القومية الانجليزية— هو من اوائل الذين قاموا بسلسلة من الهجمات الشرسة على بلدان العالم الثالث.

اما روبرت كليف[19] فهو المسبب الرئيسي لتوسع الاستعمار في الهند. وهو الذي أقام مجزرة وحشية بحق الشعب الهندي. في «معركة بلاسي».

بينما كان (سيسيل جون رودز)[20] المسؤول عن توسيع الاستعمار الانجليزي في المناطق الاخرىٰ، يقوم بالمجازر والجرائم والقتل الجماعي باسم «القومية».

---

* Joseph Lighten: Social Philosophies in Conflict Newyork 1937. p. 439

وهكذا، استُغِلّتِ «القومية» في القرن التاسع عشر من قبل كَهَنَة الاستعمار كمحفز ودافع لتحقيق اطماعهم المصلحية، فالقومية هي «دين» الامبر ياليّين، وليست مسلكاً لمعارضي الاستعمار.

ولا يخفىٰ، ان استقرار نظام الرأسمالية اعطى زخماً قوياً لتوسيع فكرتي القومية والاستعمار، فالرأسمالية وبعون من المذهب القومي، كانت توجه السياسة القوميه للبلدان نحو التوسع لتمد يدها الى اقصىٰ نقاط العالم بغية الحصول على اسواق لبضائعها.

فباسم «العظمة والتفوق القومي» وبالتستّر بالشعارات القومية، كانت «شركة الهند الشرقية للتجارة»[٢١] تقوم بتوسيع رقعة الاستعمار في الهند. وهذا هو احد ابرز نماذج التقاء «القومية والامبر يالية والرأسمالية» والذي سنتطرق اليه بالتفصيل.

٤ــ علاقة القومية بالرأسمالية:

القومية اداة بيد الرأسمالية:

والسبب الآخر والمؤثر في انتشار القومية في القرن التاسع عشر هو امتداد جذور النظام الرأسمالي الى الغرب*. فالقومية من جهة كانت وسيلة يستخدمها الرأسماليون الكبار واصحاب المعامل للابقاء والحفاظ على السوق الداخلية لاستهلاك المنتوجات الصناعية بحيث مكنتهم هذه الوسيلة من إثارة المشاعر القومية لدىٰ الشعب لاستهلاك المنتوجات الوطنية فقط. ومن جهة اخرى اجازت لهم البحث عن اسواق جديدة وتوجيه الحكومة والشعب باسم القومية والمصالح الوطنية، نحو التفكير في استحداث مستعمرات اخرىٰ. ولهذا نجد ان العقيدة القومية بعد ظهور الرأسمالية في القرن، التاسع عشر، بلغت ذروةً لم يسبق لها مثيل.

---

* **Hans Kohn:** The idea of Nationalism: A study in its origin and background p 79.

وبعد الثورة الصناعية تبلورت الرأسمالية الاستغلالية. ثم بدأت الثورة الصناعية الاولىٰ على اثر سلسلة من الاختراعات، قام بها «جون كي»[٢٢] في عام ١٧٣٢م.

وأدت اختراعات «توماس سافري»[٢٣] و «نيوكومن»[٢٤] و «جيمس واط»[٢٥] و «أرك رايت»[٢٦] و «كرومتون»[٢٧] و «دربي»[٢٨] و «كورت»[٢٩] و «هنري بسمر»[٣٠] وغيرهم، الى ظهور المعامل العملاقة وتزايد الانتاج بشكل مذهل، وظهور النظام الرأسمالي العالمي.

وبما ان المشكلة الاساسية بالنسبة للرأسماليين واصحاب المعامل العملاقة كانت تكمن في الفائض الانتاجي الكبير، كان الشغل الشاغل للرأسماليين هو الحفاظ على سوق الاستهلاك وتصدير منتوجاتهم والنجاح في تنافسهم مع الرأسماليين في الدول الأخرى.

وهنا استخدم الرأسماليون و اصحاب المعامل العملاقة الفكر القومي لتحقيق الاهداف اللاإنسانية.

وكان اصحاب المصانع والرأسماليون يبتغون هدفين:—

أ — السيطرة على اسواق بلدانهم وعدم السماح للبضائع الاجنبية بدخول اسواقهم.

ب — البحث عن اسواق جديدة في المناطق الاخرىٰ من العالم.

واستطاعت الرأسمالية تحقيق كلا الهدفين عن طريق الهاب المشاعر القومية. فاثارة العواطف والمشاعر الوطنية والقومية تؤدي بجموع الشعب الى تفضيل منتوجاتها الداخلية على الاجنبية حتىٰ وان كانت الاجنبية اجود صناعة. وكانت الرأسمالية من خلال اثارتها للتعصب القومي توجه سياسة هذه البلدان نحو الامبريالية واستحداث المستعمرات اللازمة، لتصريف البضائع في اسواق جديدة.

ثم قامت الرأسمالية، بمساعدة الفكر القومي، بسلسلة من الاجراءات التهديدية ضد الرأسمالية الأجنبية، فالمنافسة والمجابهة في مجال الاقتصاد امتدتا

الى مجال السياسة و تم من خلالها تحديد حرية السفر وعدم السماح لدخول البضائع الاجنبية، والتشديد على اللغة كسلاح قومي، في منع دخول البضائع الى اسواقهم الداخلية*.

ولكي لا تصيب الرأسمالية أية اضرار جرّاء دخول المنتوجات الى اسواقهم الداخلية، فانهم رفعوا شعار «الوطن» و «المصالح القومية» والتي هي في الواقع مصالحهم، ودعوا «المواطنين» الى اعداد جيش «المصالح الوطنية».

وبهذا أضحت القومية سلاحاً في سلّم ازدهار الرأسمالية تحارب به رأسماليات الدول الاخرىٰ وتحصل على مزيد من الاسواق في العالم لتصريف منتوجاتها.

ثم اقدمت الرأسمالية الجشعة على ترويج المذهب القومي لهدف دنيئ، ألا وهو بثُّ الفُرقة بين الفئات المستضعفة. ففي القرن التاسع عشر استغلت الرأسمالية الفئات المستضعفة في المجتمع اشد استغلال. ومع الثورة الصناعية تحولت عجلة الرأسمالية التجارية الى الرأسمالية الصناعية فولّدت تمركز رأس المال والعمل، وفي ظل هذه الظروف بلغت معدلات استغلال واستثمار القوىٰ العاملة عشرات الأضعاف لتمتصَّ دماءهم وتوسع هوة التباين والظلم الاجتماعيين، بصورة وحشية وقاسية.

وبديهي ان النظام الرأسمالي اللا إنساني من اجل استغلال الفئات المستضعفة والحيلولة دون اية انتفاضة لهم، واجبار العمال على العمل كقطعة غيار في الماكنة وفي ظروف مأساوية بعيداً عن أيّ تفكير وتأمل في وضعهم، فانها كانت في امس الحاجة الى «دافع» فاعل و قوي، فجاءت القومية كدافع جيد لرفع شعار «وا وطناه» لتأمين هدف الرأسمالية.

والمعروف ان اثارة المشاعر القومية وبث الحماس الوطني، تؤديان بالمستضعفين الى نسيان الظلم الاجتماعي، والاهتمام بالقضايا الوطنية

---

* Carlton Hays: The Historical Evaluation of Modern Nationalism p 129.

والقومية.

اما نظرية «الوحدة القومية» فكانت تحول دون استيعابهم وفهمهم، لعدم التقاء مصالحهم مع مصالح مستكبري المجتمع. اضافة الى ذلك ان نضال العمال في سائر الدول الاوربية عند ما كان يظهر كرد فعل طبيعي للاستثمار الوحشي، فان طرح مسألة القومية وتأجيج المشاعر القومية شكلتا عائقاً امام اتحاد جميع المستضعفين في جبهة واحدة ضد المستكبرين.

والفكر القومي كان يجبر مستضعفي بلدٍ ما على الاتحاد مع مستكبري البلد نفسه لمواجهة مستضعفين آخرين في بلد آخر، كي لا يخطر على بالهم ان يتحدوا مع اولئك المستضعفين و يقفوا بوجه المؤامرات الشيطانية للمستكبرين. وهذا هوعين سياسة «فرق تسد» التي اتبعها الظالمون على طول التاريخ.

وهكذا يمكننا أن نلاحظ كيف ان المذهب القومي كان و لايزال العون الكبير للرأسمالية في ابتزاز ونهب ثروات المحرومين والمستضعفين.

٥ــ القومية في القرن العشرين:

يمكن تقسيم تاريخ القومية في القرن العشرين الى مرحلتين:

أ ــ القومية في النصف الأول:

ب ــ القومية في النصف الثاني.

ففي النصف الاول والى الحرب العالمية الثانية تجلت القومية في اوربا واليابان لتُدخل العالم في اتون حربين عالميّتين وادّت القومية ايضاًبدول اوربا الغربية واليابان الى ان تحلم بالسيطرة على العالم كله مما ادى بها الى الانجراف في مآسي الحربين العالميتين الاولىٰ والثانية. و يعترف اغلب المحققين بان الدافع الرئيسي للحربين العالميتين الاولىٰ والثانية، تمثل باثارة المشاعر القومية وتأجيجها. أمّا قادة هذه المرحلة من القوميّين الذين طبقوها قولاً وفعلاً فهم كُلٌّ من موسوليني الايطالي وهتلر الالماني و بيرون[٣١] الارجنتيني و فرانكو الاسباني وسالازار البرتغالي.

و كان هؤلاء حصيلة مشؤومة ومأساو ية للقومية، انزلوا بالبشر ية افدح البلاء.

وما تزال القومية المبدأ الرسمي للمعتدين العالميين كامر يكا.

اما في النصف الثاني، فقد ظهرت بوادر القومية في العالم الثالث، وتمثلت ظاهر ياً بالعمل على إزالة الاستعمار وترحيله لكن ومن خلال التقييم الدقيق ظهر بان الواقع غير ذلك، فالثقافة والسلطة الغر بيتان كانتا على غير وفاق مع المذهب والعادات واسلوب الحياة والتفكير عند الشرقيين.

وان انتشار القومية في هذه البلدان وعدم انتشارها لم يكن له تأثير على تمرد و عصيان الشعوب ضد الاستعمار، لان مناهضة الشعوب للاستعمار و ثـوراتها ضده كانت بدافع الشعور الديني لا القومية ونزعتها الحماسية. بيد ان فئة ضئيلة من المثقفين المرتبطين بالغرب، ادركوا ان سيادة الاستعمار المباشرة اصبحت غير ممكنة، لذلك ركّزوا على نغمة «القومية» لتكون قيادة النضال بأيديهم وليتسنّى لهم بعد مغادرة المستعمر ين تطبيق القيم والنظم الغر بية بهدف ابقاء النفوذ الغربي بصورة غير مباشرة.

* * *

وفي المرحلة الراهنة و بعد طرد الاستعمار و حصول غالبية المستعمرات على استقلالها فان «القومية» عادت الى الساحة من جديد لتخدم الاستعمار والامبر يالية العالمية مع فارق بسيط في تغيير الادوار.

واليوم يهدف الاستعمار من خلال نشره لمذهب القومية، الى الحيلولة دون وحدة المستعمرات السابقة، لتبقىٰ ضعيفة ومغلوبة على امرها و مرتبطة على الدوام بالقوىٰ العظمىٰ. لان الامبر يالية ايقنت انها غير قادرة على اخضاع شعوب الشرق بشكل مباشر لسلطتها، هذا من جهة، ومن جهة اخرى انها تعلم بأن اي اتحاد بين الشعوب من شأنه تعر يض مصالحها الى خطر حقيقي.

لذلك ولاجل ابقاء الدول المستقلة حديثاً في آسيا و أفر يقيا تحت سيطرتها اقدم المستكبرون على تصدير بضاعة «القومية» الـى منطقة الشرق

لزرع بذور الفرقة واشغال هذه البلدان بحروب و مشاكل جانبيّة،وعدم افساح المجال لها للتفكير بالوحدة.

ولهذا، نلاحظ ان الاستعمار قام فور رحيله بتسليم مقدرات الحكم بيد اقليات غربية الثقافة و «قومية الاتجاه»، مقدِمة لهم العون والتأييد ضد القوىٰ الاسلامية.

ولا تزال علاقة القومية بالاستعمار موجودة ومستمرة. وأينما ظهرت بوادر القومية فانها ستكون ــ بلاشك ــ حصيلة نشاطات ومكر الامبريالية العالمية.

الفصل الثاني

تاريخ ظهور القومية في العالم الاسلامي

١ــ القومية من صادرات الاستعمار:

«القومية» مذهب صدَّره الاستعمار الى البلدان الاسلامية لتحطيم وحدة العالم الاسلامي. فبعض مفكري الغرب ومستشرقيهم هيأوا ــ وباستمرار ــ الارضية اللازمة لها وفتحوا الطريق للغزو السياسي والثقافي للاستعمار الغربي، في مناطق آسيا وافريقيا. لتظهر القومية من خلال المثقفين المرتبطين بالغرب وتنتشر على ايديهم.

لقد احس الاستعمار الغربي بخطورة وحدة العالم الاسلامي على مصالحه السياسية والاقتصادية.

ففي اواخر القرن التاسع عشر ارتفعت في العالم الاسلامي نداءات السيد جمال الدين والسلطان عبدالحميد والآخرين، مؤكّدة على ضرورة وحدة العالم الاسلامي حيث تمكن العرب والاتراك باتحادهم وتلاحمهم في ظل الامبراطورية العثمانية من صد التوسع الغربي في منطقه الشرق الاوسط الحساسة المهمة.

وعندما احست القوى العظمى بالخطر، بدأت باستخدام الاساليب المضللة، وللأسف كانت فاعلة. ومن جملة تلك الاساليب إثارة المشاعر الوطنية وتصدير العقيدة القومية ونشرها بين العرب والاتراك لتقف سداً امام

وحدة العالم الاسلامي ومن ثمَّ تعمل على تجزئة الامبراطورية العثمانية.

ومع تضاؤل قوة ونفوذ الحكم العثماني في الشرق الاوسط، يمتد نفوذ الاستعمار الغربي ليصبح البديل.

النقطة المهمة جداً هنا هي، ان القومية —في بادئ امرها— لم تظهر في البلدان والمناطق التي يقطنها المسلمون والتي تخضع لسلطة بريطانيا وفرنسا وانما ظهرت في المناطق التابعة للامبراطورية العثمانية!!

وابان الاستعمار البريطاني للهند، لم يجد المثقفون الغربيو الاتجاه، امثال سيد احمدخان، أية ضرورة للتأكيد على المشاعر القومية والوطنية المناهضة للأجنبي، بل اكتفوا بالتفكير في تحسين الوضع الاقتصادي والتعليمي للمسلمين حتى ان السيد احمد خان اتخذ موقفاً مخالفاً لحزب المؤتمر الهندوسي القومي.

وفي السودان والجزائر كان الاسلام حاضراً. فالمهدي السوداني وعبدالقادر الجزائري وقفا ضد الاستعمار ولم يكن آنذاك اي اثر للقومية. وكذلك في اندونيسيا و ماليزيا ومناطق وجود المسلمين في الشرق الاقصىٰ والخاضعة مباشرة للاستعمار البريطاني والفرنسي لم يجد المثقفون الغربيو الاتجاه ضرورة ماسة لاثارة المشاعر والاحاسيس القومية، بل بالمقابل، ركّزوا العزف على وتر القومية، في البلدان التابعة للامبراطورية العثمانية، اي تركيا ومصر، لابعاد وعزل الشعوب المسلمة عن الحكم العثماني، وايجاد طريق لنفوذ هم وتوسيع سيطرتهم.

وهذه الحقيقة التأريخية تبين بوضوح ان التركيز الملح من قبل حملة الراية القومية في البلدان الاسلامية لم يكن وليد المشاعر الصادقة والمناهضة للأجنبي وانما كان نابعاً من مصدر آخر...!!

فالواقع ان هؤلاء لم يكونوا، سوى اداة بيد الدول الاستعمارية. مهمتهم كسر شوكة وحدة العالم الإسلامي، وإنهاء الامبراطورية العثمانية او اضعافها على الاقل، ولو اخذنا بنظر الاعتبار هذه النقطة لأدركنا السر الكامن

وراء عدم طرح المسألة القومية آنذاك من قبل المثقفين المغتربين في ايران بنفس مستوىٰ طرحها من قبل رفاقهم في تركيا ومصر والشام ولبنان.

فايران لم تكن تابعة للامبراطورية العثمانية. ونتيجة للتأكيد المفرط آنذاك من قبل الملوك القاجاريين على التوصيات المذهبية، فانها كانت معزولة عن العالم الاسلامي. وكذلك فان الاستعمار لم يخطر على باله ان تصبح ايران جزءاً من العالم الاسلامي الموحد والكبير. ولهذا فانهم اطمأنوا من هذا الجانب وكان شغلهم الشاغل هو نموّ النظام الغربي والثقافة الغربية واستقرار حكومة علمانية لا اسلامية، فجاء تأكيدهم واصرارهم على موضوع الدستور والديمقراطية الغربية والافكار الليبرالية الغربية، في ايران، وكانت مؤلفات «طالب اوف» و «ميرزا آقاخان كرماني» اقل تأكيداً على القومية والوحدة القومية، قياساً الى ماقام به رفاقهم من العرب والاتراك مع فارق التركيز على الدستورية (المشروطة) والديمقراطية والليبرالية الغربية وضرورة الابتعاد عن المبادئ والافكار الدينية والاقتباس من الثقافة الغربية*.

لماذا اصبحت اسطنبول والقاهرة وبيروت دون غيرها من البلدان الاسلامية، المنطلق الرئيسي للافكار القومية؟

ولماذا اقترن عرض الفكر القومي بفترة انتشار الاستعمار في اواخر القرن التاسع عشر؟.

ولماذا استهدفت النزعة القومية الاتراك والعرب مثيرة فيهما المشاعر القومية ضد بعضهما البعض دون التطرق الى الاستعمار الفرنسي أو الانجليزي؟

لماذا ظهرت المشاعر القومية في مناطق الامبراطورية العثمانية لا في البلدان المستعمرة من قبل الغرب؟

---

* راجع «انديشه هاى ميرزا آقاخان كرماني» و «انديشه ميرزا فتحعلي آخوندزاده» فارسي. تأليف فريدون آدميت.

وكيف استطاع الاستعمار ربط الشرق الاوسط بعجلته بعد تداعي الاقاليم العثمانية اثرالمشاعر القومية؟

ان التفسير الصارخ لسعة وأبعاد تدخل الاستعمار الغربي، متبلور في ظهور الفكر القومي وانتشاره في العالم الاسلامي لاغير.

٢ــ نابليون والفرنسيون هم مؤسسو القومية في مصر:

ظهر المذهب القومي في البلدان الاسلامية خلال القرن التاسع عشر، واولى البلدان التي تسرَّبت اليها «النزعة القومية» هي مصر وتركيا. ويعتبر هجوم نابليون على مصر نقطة تحول في تاريخ العالم الاسلامي وبداية للتغريب.

فخلال فترة قصيرة من احتلال الفرنسيِّين لمصر اخذت الافكار الغربية طريقها الى عقول قادة الفكر في مصر. فاتصال والتقاء مجموعة من مفكري مصر امثال عبد الرحمان جبرتي والشيخ حسن العطار وغيرهما بالمفكرين الذين جاءوا مع نابليون الى مصر، وبتشجيع من الفرنسيِّين دب الشوق والحماس للسير على خطى الغرب بين البعض من مفكري مصر. وهذه الملاحظة توضح سبب وحقيقة ظهور الشعور القومي في مصر قبل غيرها ومن ثم تهيئة اجواء انفصالها عن الامبراطورية العثمانية قبل بقية المناطق. والدليل الواضح على ذلك، هو ان الفرنسيِّين كانوا في صراع مكشوف مع امبراطورية الاتراك المسلمين من جهة وورثة التعصب الصليبي المناهض للاسلام من جهة اخرى. ولذا عمدوا الى التحرك قبل غيرهم لتحطيم الوحدة الاسلامية واسقاط الامبراطورية العثمانية من خلال تحريض المصريين وإثارة الحس القومي فيهم، كما فعل الانجليز ذلك في المناطق العربية الاخرى.

وقد اقدم نابليون شخصياً على إذكاء الحس القومي لدى المصريين وحثهم على التفاخر بتراثهم القديم، وذلك بانشاء «مؤسسة مصر» التي كانت

في الظاهر جمعية علمية مهمتها دراسة تاريخ مصر وحضارتها العريقة إلا انها كانت —في الواقع— تهدف الى تقوية حس الانسان المصري «بمصريته» مقابل فكرة الوحدة الاسلامية وإضعاف الشعور والالتزام الاسلاميَّين لدى هؤلاء وعزل مصر عن الامبراطورية العثمانية.

وبواسطة هذه المؤسسة توجه بعض العلماء والمفكرين البارزين الفرنسيين امثال «كلو»[٣٢] و «سريزي»[٣٣] و «لينان»[٣٤] و «روزيت»[٣٥] الى مصر من فرنسا*.

اما الهدف من تلك المهمة فكان واضحاً إذ انهم ارادوا تمكين المصريين من معرفة حضارتهم القديمة والتاريخية (اي الحضارة الفرعونية) والتطلع من خلالها الى التراث الفرنسي والسير في ركبه!

وألّف بعض «المحققين» امثال سيلفستر دوساسي[٣٦] كتباً حول عظمة «حضارة الفراعنة».

واستطاع حَمَلَةُراية القومية امثال الطهطاوي — من خلال كتاب دوساسي — اكتشاف ضالتهم في «القومية» والتعلق بتراث وعظمة الحضارة التاريخية لوطنهم*.

ويحتمل ان إقدام محمدعلي باشا على الاستقلال عن الامبراطورية العثمانية واعلانه ولاول مرة عن مشروع «وحدة العرب» كانا باشارة من الفرنسيين. ولقد افتتحت «٧٧» مدرسة خلال الاعوام ١٨٦٣ — ١٨٧٩ تابعة للفرنسيين والامريكان والالمان والايطاليين، في مصر، ووصل نشاط المبشرين الغربيين الى حد كبير جداً.

ثم ظهرت — نتيجة لمساعي الاستعمار — حفنة من المثقفين ذوي الاتجاه الغربي حملت راية «الوطنية المصرية» مؤكدة على ضرورة تبعية مصر

---

* M. Sabry: L'Empire Egyptian Sous Mohammad Ali; p579, Paris, 1930.

* راجع «الفكر العربي» للحوراني.

لحضارة الغرب. فكان رفاعة الطهطاوي (١٨٠١–١٨٧٣) – من أوائل المصريين المرتبطين بالغرب فكرياً –قدأمضى خمسة اعوام في باريس تغذى خلالها بالفكرالغربي وشحن بالثقافة الفرنسية ورجع الى مصر حاملاً معه افكار مونتسكيو حول الوطنية والوطن ليروجها في بلده.

واستخدم الطهطاوي في كتاب (المناهج) ومقالاته الأخرى مصطلح «الوطن» و «حب الوطن» بمفهومه الغربي، مؤكداً بقوة على ان المصريين هم امة بمعزل عن بقية المسلمين. ويجب ان ينصب اخلاصهم ووفاؤهم لـ«الوطن».

والحقيقة ان الطهطاوي حاول عبثاً في كتابه اثبات عدم التعارض بين الاسلام والقومية.

فهذا القومي المصري والطليعي ربط انحطاط مصر، بالسلطة والحكومة الاسلامية غير المصرية كحكومة المماليك.

وفي نفس الوقت – وبكل وقاحة–نزّه الفرنسيين والغرب من صفة الاستعمار واعتبرهم رُسل الحضارة والعلوم والثقافة الحديثة مؤكداً على ضرورة تبعية مصر للغرب. اما الطليعي الآخر في القومية المصرية فهو يعقوب الضوع الذي ولد من أب يهودي وأم ايطالية وعاش مدة طويلة في باريس وكان عميلاً لفرنسا.

وقد اصدر مجلة «الوطن المصري» في باريس بهدف ترويج ونشر مبدأ «قدسية مصر». ويُعتبر من مؤسسي فكرة الوطنية المصرية، وكانت له علاقات وثيقة بـ (كرومر) حاكم مصرالبريطاني آنذاك.

ويعتبر طه حسين «الغربي الاتجاه» من حملة راية الوطنية المصرية، ايضاً. ففي كتابه «مستقبل الثقافة» سعى جاهداً لاثبات ان مصر مرتبطة باوربا ولاعلاقة لها بالعالم الاسلامي مطلقا. وفي عصره اصبح للقوى الوطنية بقيادة حزب الوفد، نفوذ سياسي واسع في الشارع المصري.

فسعد زغلول رئيس حزب الوفد وبقية الساسة القوميين لم يكونوا سوى رموز انجليزية، لان الاستقلال السياسي في تصورهم –كان في الواقع– وسيلة

محضة للتطور على الطريقة الاوربية وقبول القيم الحضارية لاوربا.

هذه هي قصة ظهور وانتشار القومية في مصر التي اوجدها الغرب وغرسها وسقاها.

٣– ثلاثة من يهود اوربا اثاروا فكرة القومية التركية:

وتركيا هي واحدة من البلدان الاسلامية الاولىٰ التي تسرَّبت اليها فكرة العقيدة القومية. و يعترف المستشرق المشهور برنارد لويس بأن ثلاثة من يهود اوربا كانوا يثيرون النزعة القومية لدىٰ الاتراك *.

وآرثر لوملي دافيد[٣٧] (١٨١١– ١٨٣٢) هو اول من سعىٰ الى تأجيج شعلة الشعور القومي لدىٰ الاتراك، فهذا الشخص اليهودي الانجليزي سافر الى تركيا ونشر كتاباً له باسم «دراسات تمهيدية»[٣٨] حاول فيه اثبات استقلالية العرق التركي وافضليته على العرب وسائر شعوب الشرق،

يقول لويس:

«إن كتاب هذا الشخص اليهودي الانجليزي أكد للاتراك انهم قومية مستقلة». فقبل المد الفكري الغربي، لم يكن هناك اي وجود لفكرة القومية ونفثات الغرب في الامبراطورية العثمانية، بل وحتىٰ في بداية القرن المعاصر لم يشعر الاتراك او العرب بانهم غرباء عن بعضهم؛ فالعرب ارتضوا ان يكونوا جزءاً من الامبراطورية العثمانية بسبب الدين المشترك، بينما كان الاتراك يعتزون بالعرب و يعتبرون الثقافة واللغة العربيَّتين من علامات الرقيِّ و التقدم، حتىٰ ان مستشاري السلطان عبدالحميد كانوا من العرب. ومن جملة هؤلاء ابوالهدىٰ وعزت باشا. وفي ثورة عام ١٩٠٨ التي قامت ضد السلطان عبدالحميد كان هناك ضابطان عربيان على الاقل (عزيز علي المصري و محمود شوكت) من ضمن قادتها.

---

* Bernard Lewis: Islam in History p132, London 1973.

لكن انتشار بعض المؤلفات ككتاب اليهودي المذكور خلق بالتدريج مجموعة من المثقفين والسياسيين المرتبطين امثال قادة (حركة تركيا الفتاة) المهتمة بـ «القومية» والمؤمنة بافضلية العرق التركي وتفوقه.

في عام ١٨٥١، ترجم كل من فؤاد باشا وجودت باشا اكثر كتابات دافيد الى اللغة التركية وفي عام ١٨٦٩ نشر كاتب يدعى «علي ساوي» كراساً باللغة التركية مقتبساً من مؤلفات دافيد، انصب الحديث فيه على عظمة ومنزلة العرق التركي في الماضي. وكان ذلك الكراس بداية للكتابات التركية التي ترشحت منها الميول القومية بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ الامبراطورية العثمانية. وكما يقول لويس «وهكذا ادرك الاتراك قوميتهم عبر الغربيين مستنسخين بذلك الكتابات الغربية»*.

والكاتب اليهودي الفرنسي «دافيد ليون كوهين»[٣٩] لعب دوراً كبيراً في بثّ النزعة القومية في نفوس الاتراك.

ففي عام ١٨٩٩ نشر الكاتب المذكور كتاباً تحت عنوان «تعريفٌ عامٌ بتاريخ آسيا»[٤٠] ركزَّ الحديث فيه على تفوق وأفضلية العرق التركي وأشاد بملاحمهم الحماسية خلال التأريخ. وفي العقد الاول من القرن العشرين تُرجم هذا الكتاب الى اللغة التركية وطبع ووزع على نطاق واسع. ويعتقد كل من البروفيسور خدوري وبرنارد لويس ان اليهودي —كوهين— هو الذي بث الفكرة القومية التركية بين اعضاء حركة تركيا الفتاة والتي قامت بالثورة عام ١٩٠٨ *.

واضافة الى ذلك الكتاب، نشر كوهين العديد من القصص الحماسية

---

* Bernard Lewis: Islam in History p.132.

* راجع كتاب Nationalism in Asia and Africa. ص١٥٩ لمؤلفه الخدوري وكذلك المرجع السابق لمؤلفه لويس ص١٣٢.

حول ماضي الاتراك. والواضح ان ذلك اليهودي كان يهدف من وراء تمجيده بالعرق التركي، إثارة التعصب القومي والعرقي لدىٰ الاتراك بغية اضعافهم وعزلهم عن بقية الشعوب الاسلامية.

ولم يكتف كوهين بكتاباته، بل عمد الى تأسيس جمعيات لضم الاتراك والمصريين المنفيين فيها وقد ساهمت تلك الجمعيات بصورة فعالة وعملية على وضع اللبنات الاساسية للحركة القومية في هذه البلدان*.

لكن الذي كان له السبق والدور الكبير، في بث فكرة القومية بين الاتراك والعرب، هو المستشرق المشهور ارمينوس فامبري[٤١] (١٨٣٢ — ١٩١٨) ابن حاخام يهودي مجري. فقد نشر مؤلفات كثيرة، مؤكداً فيها على ضرورة احياء القومية التركية من خلال الادب واللغة التركية، وكانت مؤلفاته تلقىٰ الترحيب من قبل اوساط المثقفين الاتراك من ذوي الاتجاه الغربي، مثيرة حماسهم الجياش حول «حب الوطن وقدسيته»

وتمكن فامبري من اقامة علاقات وثيقة مع رجال الحكم والسياسيين البارزين الاتراك. (حول دور دافيد كوهين و فامبري في انتشار النزعة القومية عند الاتراك راجع:

(History-Writing and National Revival in Turkey.)

لكاتبه برناردلويس، وكذلك

(The Development of Secularism in Turkey.)

لكاتبه نيازي بركس، طبع مونتريال ١٩٤٤ ص ٣١٤ — ٣١٥).

و يتمثل أحد أهم الاهداف الرئيسية لليهود في اثارة الحس القومي، بتمهيد الطريق لاحتلال فلسطين، فبعد ان فشل اليهود في اقناع السلطان عبدالحميد على منح الاراضي الفلسطينية لليهود المهاجرين، بموقفه القاطع والحازم. توصل اليهود الى ان النتيجة الوحيدة لتحقيق حلمهم تتمثل في اسقاط

---

* حول نشاطات كوهين وماضيه راجع: موسوعة اليهود، مقال زوديك كوهين ص ٦١ وكذلك Turkism and the Soviets. المؤلفه هوتلر ص ١٤١. لندن ١٩٧٧.

السلطان عبدالحميد وتشتيت شمل العالم الاسلامي وتفكيك وحدة الاتراك والعرب.

وبرفع راية القومية وتشجيع القوميين وتأسيس حركة «تركيا الفتاة»[٤٢]، تمكنت الصهيونية من عزل عبدالحميد وسجنه ومن ثم تهيئة اجواء الخلاف والحقد والعداء بين العرب والاتراك*.

ونتيجة لهذه الدسيسة الاستعمارية —الصهيونية تأسست الحركة القومية لتركيا الفتاة التي ادت الى ثورة ١٩٠٨م، وعزل السلطان عبدالحميد. وفي الحقيقة ان حركة تركيا الفتاة كانت بايمانها واعتقادها بفكرة تفوُّقِ العرق التركي والسياسة «الطورانية»، تعتبر أكبر مُنَفِّذٍ لخطّةِ الصهاينة.

لقدبدأ الاتراك بتطبيق سياسة معادية للعرب، واغلقوا الجمعيات الثقافية العربية، ومارسوا التفرقة العنصرية بين العرب وغيرهم من الشعوب الاسلامية الاخرى، وكان الانجليز من جانبهم يثيرون النزعة القومية عند العرب بصورة مباشرة ومتزامنة مع سياسة حركة تركيا الفتاة مما ساعد بشكل كبير على تصعيد العداء بين الطرفين (العرب والاتراك).

وبهذا حققت الصهيونية والامبريالية هدفين في آن واحد الا وهما إثارة النزعة القومية والحقد على العرب لدى الاتراك من جهة، وإثارة النزعة القومية والحقد على الاتراك لدى العرب من جهة اخرى. والعرب الى ذلك الحين لم يكونوا يشعرون بأنهم قوم منفصلون عن غيرهم، لكن عندما اعلنت حركة تركيا الفتاة فكرة التفوق الحضاري التركي على بقية الحضارات، بدأ العرب يؤكدون على هويتهم المستقلة. وأثارت هذه السياسة المشاعر القومية بين العرب. وسيتضح لنا كيف ان الاستعمار الانجليزي لعب دوراً

---

* حول هذا الموضوع راجع Mardin: The Genesis of young Oltoman thought: a study in the modernization of Turkish political ideas (Princeton N.J 1962 p150) Harold Boven: British Contribution to Turkish Studies p43-4 London, 1945.

مباشراًوفعالا في هذا المضمار*.

وعمدت حركة تركيا الفتاة بعد ثورة ١٩٠٨، إلى بث وتركيز النزعة القومية بين الاتراك وذلك من خلال وسائل الاعلام من جهة وتوسيع ونشر النظام التعليمي الغربي وارسال بعثات طلابية الى اوربا لغرض الدراسة، من جهة اخرى.

كل هذه الامور ادت الى بلورة وصقل النزعة القومية عند الاتراك. بيد ان بعض المفكرين الاسلاميّين امثال نامق كمال (١٨٤٠— ١٨٨٨) وضياء باشا (١٨٢٥— ١٨٨٠) وجودت باشا (١٨٢٣— ١٨٩٨) حاولوا — جاهدين — المزج بين الاسلام والقومية. لكن، بطبيعة الحال كانت محاولاتهم محكومة بالفشل مسبقاً بدليل عدم توافق العقيدتين.

وفي النهاية ونتيجة للمسار التصاعدي للنزعة القومية و دسائس الاستعمار، ظهر كمال اتاتورك بسياسته المعادية للاسلام و تبعيته المطلقة للغرب، محققاً بذلك خطط الاستعمار الشيطانية المبتغاة.

وبينما انهمك المثقفون من ذوي الاتجاهات الغربية، بنشر وترويج العقيدة الجديدة، مستعينين بحربة اتاتورك واشياعه ظهرضياءغوكلوب (١٨٧٦-١٩٤٢) كأكبر منظر وعقائدي في مجال القومية التركية ومن مشاهير سياسة التغريب، مركزاً نشاطه على استنساخ النظريات الغربية،وواضعاً الحضارة الغربية نصب عينيه بمثابة قبلته العقائدية. وفي نهاية المطاف انتهت القومية التركية بارتباطها بحلف الناتو وفقدان استقلالها السياسي والثقافي.

هذه هي قصة ظهور. وانتشار الفكر القومي بين الاتراك.

٤— الاستعمار الانجليزي حامل راية القومية العربية:

لم يكن للفكر القومي — قبل انتشار الافكار الغربية الاستعمارية—

---

* Zein Nzein: The Emergence of Arab Nationalism p. 71.

اثر ملموس في المناطق العربية. وفي اوائل القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) اصبحت المناطق العربية تابعة للامبراطورية العثمانية.

ولم يظهر بين العرب خلال فترة الحكم العثماني وحتى اوائل القرن العشرين اي شعور بالغربة تجاه الاتراك وذلك لاعتبارهم السلطان العثماني، الحاكم الحقيقي للمسلمين وارتياحهم لوحدة المناطق الاسلامية العربية والتركية، ولم ينتهج العثمانيون أية تفرقة تجاه العرب فكان ولاة المناطق العربية من العرب ويحملون لقب «نقيب».

وفي بداية الامر، بدأ الاستعمار الفرنسي بنشر الفكر القومي وإثارة النزعة الانفصالية في مصر، ثم قامت الصهيونية والامبريالية وفق خطة جهنمية باثارة التعصبات القومية والعرقية عند الاتراك. وتشكيل حركة تركيا الفتاة، التي انتهجت لاول مرة سياسة التفرقة العنصرية ضد العرب. والى جانب ذلك بذل الاستعمار — وخاصة الانجليز — بواسطة المبشرين والمسيحيين العرب والمثقفين المغتربين — جهوداً كبيرة لاثارة المشاعر القومية والعرقية عند العرب.

وبعد مصر، كانت سوريا ولبنان والاردن هي المناطق المؤهلة لنشر الفكر القومي فيها. ففي هذه المناطق كانت الهيئات التبشيرية في ذروة نشاطاتها. فاعضاء فرقة يسوع الكاثوليكية دخلت الشام في عام ١٨٣٠م وكان البروتستانت قد سبقوهم بدخولها بعشر سنوات، بينما كان المجتمع المسيحي العربي العامل الرئيسي في تنفيذ المؤامرة الاستعمارية لانه اعتبر نفوذ الغرب ينتهي لصالحه وان وجود الاستعمارين الفرنسي والانجليزي يحميه من المسلمين فكانوا حساسين جداً تجاه انتشار الفكر الداعي الى ايجاد «امة الاسلام العالمية» اعتقاداً منهم بان تحقق مثل هذا الهدف سيجعلهم «أقلية»، بينما لو أصبحت القومية أساساً للوحدة فسوف لايكونون اقلية (لان الاساس ليس الاسلام والمسيحية وانما الكل عرب)، بل سيتمكنون من تَسَنُّم مراكز قيادة بلدانهم نتيجة لتفوقهم في مجال الثقافة والعلوم الغربية،

قياساً بالمسلمين، اي كسب ثقة واعتماد المستعمرين.

ومنذ القديم، كان المسيحيون العرب في مجابهاتهم للمسلمين العرب، يلجأون الى الاستعانة بالدول الغربية، كما حصل في الحرب الداخلية عام ١٨٦٠ عندما استدعوا الاوربيّين للتدخل العسكري في لبنان وحسم الموقف لصالحهم.

لكن هذا الاسلوب لم يكن بامكانه حل مشكلة المسيحيين على المدى البعيد، بدليل اثارة استياء العرب. ولذلك وبأمر من المستعمرين فكروا في حل آخر وهو ان يصبحوا الطليعة في نشر الافكار القومية، وكان من ابرزهم نجيب عازوري، مؤسس الفكر القومي العربي، والعميل لكل من الانجليز والفرنسيين. وفي عام ١٩٠٤ نشر عازوري كتاباً في باريس تحت عنوان «يقظة الشعب العربي»[٤٣]، ثم اسس جمعية باسم «اتحاد الوطن العربي»[٤٤] ونشر مجلة شهرية ناطقة بلسان الاتحاد باسم «استقلال العرب»[٤٥] وذلك بمساعدة «اوجين يونغ»[٤٦] احد موظفي وزراة الخارجية الفرنسية، وقام هذا الاخير بنشر كتاب باسم «النهضة العربية»[٤٧] امتدح فيه القومية العربية!*.

ومن جملة المواضيع المتكررة في مجلة «استقلال العرب» هوالتركيز على الاختلاف العرقي والحضاري والسياسي بين العرب والاتراك واظهار تفوق العنصر العربي على التركي والتأكيد المشدد على ضرورة انفصال العرب عن الامبراطورية العثمانية*.

وباعتقاد عازوري و Jung: «من اجل انهاء الامبراطورية العثمانية يلزم قيام ثلاث ثورات: ثورة عربية وثورة كردية وثورة أرمنية»*.

وكانت افكار عازوري في السياسة الدولية، تعكس ارتباطه بالانجليز

---

* Le Revue de La Nation arabe, Azorry, p. 2209.

* Elic Kedourie: The politics of political Literature in Middle East studies vol 111, No 2 May 1972 p.230.

* راجع كتاب البلاد العربية والدولة العثمانية، ساطع الحصري، بيروت ١٩٦٠ ص١٢٦.

والفرنسيين، في مقابل الاتراك كان يظهر الود للإنجليز، و يدعم (حزب محمد وحيد بي) العميل للانجليز، وكذلك المطبوعات المؤيدة للانجليز مثل «المقطّم» و «الوطن» معتبراً السلطة الألمانية —التي تسند العثمانيّين— خطراً على المجتمع البشري. فكان الانجليز والفرنسيون بالنسبة له مظهري العدالة في العالم، وقدشجع هاتين الدولتين للتدخل في الشؤون الداخلية للعثمانيين، لصالح العرب، ومعرباً عن استعداده للقيام بثورة ضد الامبراطورية العثمانية، بدعم من Jung ومساعدة الانجليز والفرنسيين.

يقول الدكتور حميد عنايت في كتابه «نظرة في الفكر الاسلامي»: «كان عازوري يعلن وفاءه وطاعته للانجليز والفرنسيين و يعتبر نفسه امينا لمصالحهم في الشرق بقوله: يجب على الفرنسيين اعانتنا والإفصاح عما يريدونه منا».

هكذا كان عازوري عميل القوتين العظميين إنجلترا وفرنسا آنذاك، و مؤسس فكرة القومية العربية*.

والى جانب ذلك كان هناك الكثير من المثقفين المسيحيين المرتبطين بالاستعمار الذين سعوا لنشر و ترويج فكرة القومية العربية، ومن جملتهم بطرس البستاني وناصيف اليازجي وابراهيم اليازجي ونوفل نوفل و سليم نوفل و ميخائيل شحادة وسمعان كلهون و جرجيس فياض و ارسلان دمشقية، وتعهد هؤلاء باقناع العرب بانهم يختلفون عن بقية الشعوب الاسلامية و يتميّزون عنها، ولتحقيق هذا الهدف اقدموا على تحريف التأريخ والدين والحضارة الاسلامية، واعتبروها عربية محضة وهذه خيانة كبرى بحق العلم. فالأسس والمفاهيم التي استخدموها لاثبات القومية العربية المتميّزة، كانت مقتبسة، من الفكر والحضارة الغربيين.

---

* راجع اليقظة العربية لجورج انطونيوس ص٩٩.

وانعكست فكرة القومية العربية بصيغتين:

الاولىٰ: صيغة التأكيد على الوطنية المصرية والسورية والعراقية... الخ، والثانية: صيغة التأكيد على الوحدة العربية وبعبارة اخرىٰ «القومية العربية»

* * *

إنَّ الحكومة الانجليزية قررت خلال الحرب العالمية الاولى، ان تدخل حلبة الصراع و بصورة مباشرة رافعة لواء القومية العربية ومعلنة الدفاع عن العرب مستغلة العداء العربي— التركي لصالحها.

فثورة القومية العربية، كانت طبخة دبَّرتها الحكومة الانجليزية لتتمكن من التدخل المباشر.

فانتشار فكرة القومية العربية ضد العثمانيين مهدت السبيل لدخول الانجليز والفرنسيين الى المناطق العربية وتأسيس دويلة اسرائيل — هذه الغدة السرطانية — في قلب الوطن العربي والاسلامي.

ان الشريف حسين الذي بدأ بالتمرد القومي العربي ضد الاتراك، كان من عملاء الانجليز، وتلقّىٰ اكبر دعم منهم من اجل استقلال العرب والخلاص من سلطة العثمانيين.

فقضية تعاون الشريف حسين (بطل القومية العربية) مع المستعمرين الانجليز قصة فيها عبر كثيرة.

ففي عام ١٩١٤ وبواسطة عبدالله بن الشريف حسين حصل لقاء مباشر بين القائد الانجليزي المعروف كيشنر (Kitchner) والشريف حسين، بعدها بعث كشنر[٤٨] احدضباطه الكبار (رونالدستورس)[٤٩] لزيارة عبدالله. وفي ذلك الحين اشتعل فتيل الحرب العالمية واصبح كشنر وزيراً للحربية في انجلترا.

وفي اكتوبر (١٩١٤) بعث برسالة الى عبدالله يطلب منه الثورة واستقلال العرب عن الدولة العثمانية وفي المقابل تعلن الحكومة البريطانية

استعدادها لمساندة الشريف حسين في نضاله لتحقيق الاستقلال للعرب، بل وحتى السعي لتسليم خلافة المسلمين للعرب بدلاً من الاتراك وتنصيب الشريف حسين، خليفة للمسلمين.

وكان الشريف حسين، القومي الذي اعتلته هالة من القدسية، شديد الميل للانجليز، فباسم استقلال العرب نفذ خطط الاستعمار. وعندما اشتبكت تركيا مع جيوش بريطانيا وفرنسا، طعنها الشريف بخنجر من الخلف وذلك بتحريض العرب على الثورة ضد الاتراك ولصالح الانجليز.

ففي الرسالة التي بعثها الجنرال الانجليزي السير ماكماهون [٥٠] للشريف حسين— والموجودة حالياً في ارشيف وزارة الخارجية الانجليزية— التي طالبه فيها بأن يلعب دوره المصيري في «نضال الشعب العربي الكبير من اجل الاستقلال»، اعرب ماكماهون عن تقديره وتثمينه لدور الشريف!!!

وفي ٢١ جولاي ١٩١٥ بعث الشريف حسين رسالة الى (السير ماكماهون) اكد فيها على ضرورة الدعم الانجليزي «لخلافة العرب».

وبينما قامت «الثورة العربية» في ١٠ اكتوبر (تشرين الثاني) ١٩١٦، بقيادة الشريف حسين وبدعم سياسي وعسكري انجليزي، كان لورنس [٥١] عميل الحكومة الانجليزية، المستشار الاول لفيصل بن الشريف حسين في ثورته العربية. وعند هجوم العساكر العربية، المطالبة بالاستقلال، على الاتراك، كان الجنرال اللنبي [٥٢] قائد القوات الانجليزية — وبخطةٍ منسقة— في طريقه الى فلسطين.

وبهذا تطور نضال القومية العربية تحت غطاء الدعم العسكري للإستعمار الانجليزي...!!!

وبينما كان الاستعماران الانجليزي والفرنسي يوجهان ويشجعان العرب نحو حرب إستقلالية بقيادة الشريف حسين والمنظمات القومية السرية «كالفتاة» و «الأحد» المنفذة لخطط الاستعمار، كان الفرنسيون والانجليز قد انتهوا من اقتسام المناطق العربية فيما بينهم في الخفاء على ضوء معاهدة «سايكس

— بيكو»[٥٣] و«وعد بلفور»[٥٣] مُعدّين بذلك التحضيرات ممهدين لتجزئة البلدان العربية وتأسيس دويلة اسرائيل.

ومع إثارة المشاعر القومية لدى العرب ضد الاتراك، احتلت فرنسا الجزائر وتونس والمغرب، بينما احتلت ايطاليا، الاراضي الليبية، اما روسيا فانها احتلت جزءاً من ارمينيا، في حين احتلت انجلترا، مصر وقبرص وعدن ومشيخات الخليج الفارسي ثم العراق و سوريا ولبنان و بالتالي قامت بزرع الغدة السرطانية (اسرائيل) في قلب العالم الاسلامي.

هذه هي القصة المحزنة لظهور وانتشار المشاعر القومية في البلدان العربية!!

٥— الاستنتاج:

نلاحظ ان الافكار القومية تسرّبت الى البلدان الاسلامية بواسطة الغرب، وساهم في بلورتها المبشرون والمستشرقون الانجليز والفرنسيون وانتشرت نتيجةً لدسائس الاستعمار، واستغلت لصالح الاجانب واصبحت الوسيلة لتحطيم وحدة العالم الاسلامي و من ثم اسقاط الدولة العثمانية.

وكانت الاقليات المسيحية واليهودية والمثقفون المغتربون من العوامل الاصلية لتنفيذ الخطة الامبريالية في هذا الخصوص.

والاغلبية الساحقة من حملة وطلائع القومية المشهورين في العالم الاسلامي، كانت من «المغتربين» الذين اقتبسوا آراءهم وافكارهم، وعقائدهم من الغربيين.

وجاء تداول مفهومي «الوطن» و «تقديس الوطن» بين العرب والاتراك والايرانيين نتيجة لنفوذ الافكار الغربية.

والفكر القومي، تقليد مقتبس من النماذج الغربية الاستعمارية، لكنه مختوم بختم «الوطنية»، و يؤدي بالبلدان الى التبعية للشرق او للغرب.

هذه الحقيقة ابلغ نطقاً من اي حديث آخر، فبالامس كانت انجلترا

وفرنسا المحرك الاصلي للنزعة القومية في مصر و باقي البلدان الاسلامية، واليوم تعتبر امر يكا، المحرك الكبير للقوى القومية والوطنية في تركيا وايران، اما المحرك الكبير للقوى القومية— البعثية في الدول العربية فهي روسيا!!

والسؤال المهم هناهو:

«اذا كانت الافكار القومية قد دخلت العالم الاسلامي بتلقين من الغرب و مخططات المستعمرين والمغتربين، فلماذا لاقت الترحيب والاستقبال من قبل قطاع من الجماهير الاسلامية؟ وكيف انتشرت بينهم؟»

الجواب:

اولاً: ان عامة الناس لم تكن قادرة على التفريق بين «حب الوطن» و «القومية»، وكانت القومية في قرارة نفوس الناس، تعادل «الاممية الاسلامية». فالاسلام ومنذ البداية حبذ التعصب الشديد «للأمة» وقسّم العالم الى دار ين «دار الاسلام» و «دار الحرب». وبما ان جموع العامة كانت تعتبر القومية مرادفة للفكر الاسلامي لذلك استقبلتها برحابة صدر.

ودليلنا هو ان الجماهير بالرغم من تحدثها حيناً عن الوطنية والقومية إلا ان الشخص المصري كان يعتبر القبطي المسيحي خارج نطاق وطنيته، وكذلك فان المسلمين الاتراك على الرغم من مشاعر هم القومية والوطنية، كانوا يعتبرون الأرامنة الاتراك، اجانب و غرباء.

وتمتزج القومية عملياً بسلوك الجماهير — «بالأممية الاسلامية» والارتباط الديني بالمشاعر القومية والوطنية.

ثانياً: وخلافاً لاعتقاد حملة راية القومية والمغتربين المرتبطين بالاستعمار، فان استجابة وتعاطف الجماهير مع القومية والوطنية انما هورد فعل تجاه الظلم الاجتماعي والنفوذ الاستعماري للانجليز والفرنسيين. «فالقومية» كانت عند عامة الناس «شعوراً» لا «عقيدة»، لكن المثقفين المغتربين والساسة المرتبطين بالغرب تقبلوها «كعقيدة» و «مذهب سياسي».

ثالثاً: إنَّ مواجهة العامة للضغوط والمظالم والاضطهاد من قبل

الحكومات (الاسلامية الظاهر)، ادت الى انتشار الشعور القومي والوطني. ففي اواخر ايام الدولة العثمانية انغمس الحكام الاتراك – كبقية المستبدّين- في القمع والظلم والتنكيل بمن دونهم، و بديهي أنّ هذا الظلم لم يقتصر على العرب وحدهم بل شمل الاتراك ايضاً.

و بعد تسلم حركة «تركيا الفتاة»، لزمام الامور مارست الظلم والتمييز العنصري من خلال «القومية التركية».

هذه الامور ادت الى تهيئة الاجواء لانتشار الشعور القومي بين العرب والذي استغله الاستعمار بصورة كاملة لصالحه.

1.city — state
2.Jacobins
3.Thomas Jefferson.
4.Thomas Paine.
5.Jeremy Bentham.
6.William Gladstone.
7.Mazzini.
8.Guiseppo Garibaldi.
9.Victor Hugo.
10.Oho Bismarck.
11.Simon Boliver.
12.Jose Mortin.
13.Croats.
14.Francis Cooker.
15.Dr Bidgehet.
16.Ernest Haeckel.
17.Karl Pearson.
18.Joseph Lighten.
19.Robert Clive.
20.Cecil John Rhodez.
21.East India Company
22.John Key.
23.Thomas Savery.
24.Tomas Newcomen.
25.James watt.
26.Richard Ark wright.
27.Samuel Crompton.
28.Abraham Derbys.
29.Henry Cort.
30.Henry Bessemer.
31.Juan Domingo Peron.
32.Clot.
33.Cerisy.
34.Linant
35.Rousset.
36.Sylvestre de Sacy.
37.Arthur Lumley David.
38.Preliminery Discourses.
39.David Lεon cohun.
40.Introduction generale
L'histoire de c'Asiε.
41.Arminius Vambery.
42.Youn Turks.
43. La Rευuε de la nation arabe.
44.Ligue de la patrie arabe.
45 L'indépendence Arab.
46. Eugene jung.
47. Le Révolte arabe.
48.Kitchner.
49.Ronald Stors.
50.Mcmohan.
51.T.E.Lawrence.
52.Allenby.
53.Sykes — Picot.
54.Balfour.

الفصل الثالث

تعريف اسس العقيدة القومية وخصائصها

١ — تعريف القومية

إنَّ مرادف كلمتي «القومية» و«تقديس الوطن» في اللاتينية هو « Nationalism »، ففي اللاتينية تعني ناسيو[١]، ونيتوس، مسقط الرأس. ولقد قدَّم المحققون ومفكرو العلوم السياسية تعاريف مختلفة للقومية « Nationalism » يقول كارلتون هيس[٢]:

«القومية تمثل مجموعة من الناس مستقلة سياسياً و يربط بينها تصورٌ كوني وتراث حضاري مشتركين*»[٣]. وفي هذا التعريف يعتبر الوضع السياسي المشترك والوحدة الحضارية، المقوم الاصلي «للقومية».

و يقول هانس كوهن[٤]:

«ان التعايش الجماعي على ارض واحدة يشكل عاملاً لتكوين «القومية» وان النشوء في محيط طبيعي وجغرافي واحد يشكل اكبر ترابط قومي بين الافراد، وتكوِّنُ الجماعات التي تفكر بمصالحها المشتركة — على هذا الاساس — قومية واحدة*».

---

* J.H. Carlton Hayes: Essays on Nationalism p9, Newyork 1926.

* Hans Kohn: The idea of Nationalism its origin and background p14 Newyork, 1949.

بينما يقول بوبغي:

«إن القومية عبارة عن مجموعة من الافراد الذين تربطهم عوامل التراب والدم واللغة او الحضارة والتأريخ*».

اما تعريف سالو بارون[5] «للقوم» و «الناسيون» فهو:

(تطلق كلمة «ناسيون» على مجموعة من الناس تعيش على ارض واحدة، تربطهم مؤسسة سياسية مشتركة*)

وحول خصائص «القومية» يقول كوهن:

«يعتبر الشعور العميق تجاه الوطن والوفاء المطلق له والاحساس بوجوب المساهمة في تقرير المصير، اساساً للقومية. والقومية تكون اصيلة عند ما لايكون اي عامل قادراً على تجريد الانسان من وفائه للوطن*».

وجاء في موسوعة المعارف الامريكية بصدد تعريف القومية:

«من المفاهيم الاصلية للقومية هو الوفاء والتعلق بـ«الوحدة القومية» قبل التبعية لأي شيء آخر، اما الخصائص الاخرى للقومية فهي التفاخر بمكتسبات الشعب، والايمان الراسخ بمظاهره وحتى بتفوقه على سائر الشعوب الأخرى*».

وكذلك فان هيس يكرر ذلك ويقول: «ان الوفاء للوطن والشعب يشكل اساس القومية*».

وعند تحليل التعاريف السالفة يتضح لنا: —

اولاً: منح الاصالة «للارض» و «الدم» او «اللغة» واعتبارها اساس القومية بدلاً من الوحدة على اساس «العقيدة» و «الفكر»، فحملة راية

---

* Luigo: Nationalism and Internationalism p25, Newyork 1946.
* Salo.W.Baron: Modern Nationalism and Religion p31.
* Hans Kohn: The idea of Nationalism p 15, Newyork 1927.
* Nationalism connotes a loyalty to the group entity, superior to other loyalties (Encyclopaedea Americana)
* Carlton Hayes: Essay on Nationalism p 56.

القومية يعتقدون ان الوحدة يجب أنْ تقوم على اسس اللغة والارض والعنصر، «فالوطن» و «القومية» هما محور «الالتزام» و «التعصب».

يتحدث المذهب القومي عن العامل الاساسي في صياغة الهوية المستقلة، بقوله: «ان العامل الذي يميز الإنسان عن الآخرين هو «مسقط الرأس» و «الارض» و «اللغة» و «العنصر» لا العقيدة. ومن كان داخل نطاق «الوطن» و «القوم» فهو قريب، ومن كان خارج نطاق هذه الوحدة فهو «غريب» و «اجنبي».

والمعيار والملاك الاصلي لتقييم وقياس السلوك الفردي والاجتماعي للانسان يتلخص في «المنافع والمصالح القومية والوطنية». وفي المذهب القومي تكون العوامل المادية— كالحدود الجغرافية واللغة والعنصر والمؤسسات السياسية— من مكونات القومية وعلى اساس هذه العوامل يشعر مجموعة من الناس بمصيرهم المشترك.

ثانياً: من المفاهيم الاساسية للقومية والتي لا تقبل النقاش هو اعتبار الوفاء للوطن والاخلاص له والتعلق به محوراً اساسياً، بينما التعلق «بالخالق» و «الدين» و «العقيدة» فرعاً. على ان لا يخل اي تعلق او «تعصب» بالتعلق والتعصب الوطنيّين، ويجب عند اي تعارض بين المشاعر الدينية والمشاعر الوطنية، اعطاء الاسبقية للمشاعر الوطنية.

ولا يستطيع اي قومي اصيل انكار هذه الاصول الاساسية للمذهب القومي. والانسان في هذا المذهب، يعيش و يضحي من اجل الوطن لامن أجل شيء آخر، لان الاساس الذي تقوم عليه المواقف الفردية والاجتماعية للانسان هو التعلق بالأمة، لا التعلق بالدين والعقيدة. فهو يتفاخر بمنجزات قومه و يعتبر نفسه مرتبطاً بالتراث الحضاري و «الوطني» لابتأريخ «دينه» و «عقيدته».

والانسان القومي له اعتقاد راسخ بتعالي «قومه» و«وطنه» لاصقاً جميع المحاسن بهما، وغالباً مايؤدي مثل هذا الشعور الى الاحساس والاعتقاد

«بالتفوق» القومي والوطني على سائر الشعوب والبلدان.

٢ــ علاقة القومية بالعلمانية:

والقومية على اساس المبدأ الآنف الذكر لها ارتباط وثيق بالعلمانية[٦] القائلة بضرورة الفصل بين «الدين» و «الدولة» و «السياسة» عن «الدين» فاحد اسس القومية هو التغاضي عن الروابط الدينية وفصل الدولة عن الدين، ومن الشعارات الرئيسية التي أطلقها القوميون في مصر هو:

«الدين لله والوطن للجميع» وهذا القول يعكس المذهب العلماني القائل بان الدين امر فردي و شخصي ويجب ان ينحصر في نطاق الحياة الفردية والعائلية وان لا تتدخل المشاعر والافكار الدينية في الحياة السياسية ــالاجتماعية. لان الحكم والسيادة في الحياة الاجتماعية والسياسية يكون للمذهب القومي، لاللدين، و يلزم قطع الجذور الاجتماعية والسياسية للدين وفصلها عنه.

والقومية تؤدي ــ بدون شك ــ الى العلمانية، فالاعتقاد بان صياغة واقامة الوحدة القومية يجب ان تتمّا على اساس الوطن الواحد، يستوجب ابعاد الدين والملاحظات الدينية عن الشؤون الادار ية الحكومية.

و بإبعاد الدين عن الحياة السياسية فان العلمانية تعبد الطر يق لسيادة «القومية»، لان بناء الحكومة على اساس الدين يجرد القوميين من السلطة، إذ انه لايمكن ان يحكم ملكان على أرض واحدة!!

والعلمانية باعتبارها (توأم القومية) تغير ايضاً مفهوم الاقلية، فاذا بُنِيَ أساس الحكم على الدين فان اتباع الاديان والمذاهب الاخرى يعتبرون أقلية، لكن الاقلية بالمفهوم القومي والعلماني تعني القوميات العرقية والسياسية والاقليمية.

تقول القومية: «ان اعتبار المعتقدات الدينية هي الاساس، يمنع من

الوحدة القومية و يؤدي بالاقليات الدينية الى الشعور بالغربة، وان الاساس الوحيد والسليم هو «القومية الجغرافية او العنصر ية واللغو ية» وتتمثل الواجبات الرئيسية للفرد بالواجبات «الوطنية»، بينما الواجبات الدينية فرعية ومحدودة بحياة الفرد وعقيدته الشخصية.

والواجبات الوطنية، هي حب الوطن والوفاء له والتضحية – حتىٰ بالدين – في سبيله وخدمة الوطن الغالي والكفاح من اجله .

٣– الاسس والخصائص الاخرىٰ للمذهب القومي:

إنَّ المذهب القومي يعتبر السلطة، صيغة اقتدار ية لحماية الوطن وحفظ الافراد، وليس اسلوباً لتطبيق نظام خاص، وعقيدة خاصة. بينما يدور الاقتصاد حول محور المصالح القومية ورفاه الشعب و يأخذ بنظر الاعتبار «مصالح الوطن العز يز»، لا الاساليب المشروعة وغير المشروعة، وهذا المذهب يعتبر الثقافة والفن والشعر والادب وسائل لتجسيم العظمة القومية وحفظ السيادة واثارة الشعور القومي.

واستناداً الى النظر ية القومية فإن «الوطن» و «القومية» هما اسمىٰ ملاك ومعيار –للتقييم وتوجيه القوىٰ و تحر يكها– في الحياة الاجتماعية والفردية وكذلك في اتخاذ المواقف السياسية – الفكر ية.

وكما يقول ابن خلدون فإن العنصر المكون للقومية هو العصبية.

اما الخصائص القومية الاخرىٰ فهي:

١– الدفاع في جميع الحالات عن «المواطن» امام تحديات الأجنبي، سواء كان محقاً ام غير محق.

٢– احترام وتعظيم الشخصيات القومية والابطال التأريخيين للوطن.

٣– احياء السنن الجاهلية، من قبيل عبادة الاوثان في العصر القديم.

لقد ركزت القومية الحديثة على هذا الجانب مؤكدة على الاساطير والخرافات القديمة والمندرسة.

وبذل المذهب القومي في مصر، الذي كان طه حسين ابلغ ناطقٍ به، جهوداً كبيرة لاحياء آثار الحضارة الفرعونية القديمة. بينما ينوه لطفي السيد، هذا القومي المصري الشهير، و يقترح على المصريين، بوجوب البحث والتعمق في التعرف على الحضارة العظيمة للفراعنة، لادراك ارتباطهم التأريخي بها*.

اما القوميون في ايران، فكانوا يسعون، ايضاً لربط الشعب الايراني بكورش و داريوش، لا بمحمد(ص).

٤ــ تحريف التأريخ من اجل اظهار عظمة الشعب واختلاق الاساطير والقصص و الملاحم لاثارة مشاعر «العظمة» و «القدرة» و «الجبروت» للشعب.

٥ــ وعلى غرار الطوطمية القديمة، نجد في المذهب القومي ان العلاقات الخاصة لها قدسية واحترام. فالعَلَمُ والشعار الوطني (كالأسد والنسر) والنشيد الوطني، كل ذلك له جانب من القدسية. بل وعلى الانسان التضحية دونه، كواجب للحفاظ على قدسيته وحرمته.

٤ــ القومية شبه دين:

نلاحظ ان «القومية» اصبحت مذهباً وشبه دين، له إلَهٌ خاص به هو (الوطن) وأنبياء خاصون به (ففي ايران يعتبر الشاعر فردوسي من انبياء ورُسل المذهب القومي الايراني)، فالمعبودات والطقوس والاساطير الدينية والصفات والضوابط الاخلاقية، كلها من العناصر التي يتميز بها، مذهب او دين ما، هي موجودة باسلوب آخر في المذهب القومي.

والحقيقة، ان الغربيّين ركزوا على «حب الوطن» باعتباره غريزة في الانسان ليطرحوه مذهباً باسم «القومية» ومن ثم ادخله المغتربون الى الشرق.

---

* راجع: مقدمة لدراسة الفكر السياسي العربي ص١٠١.

٥– القومية نموذج قبلي متطور:

اقام الغربيون اسس المذهب القومي على الغريزة الاجتماعية و «حب الوطن» وعلى اساس التعصب القبلي القديم. فلو طالعنا مبادئ واسس وخصائص العقيدة القومية بدقة وامعان، لأدركنا أن القومية هي خليط من النظام القبلي والسُنة الطوطمية.

فأساس العلاقة في النظام القبلي هو الاشتراك في وحدة «الدم» و «التراب» ففي النظام القبلي، ايضاً، و بغض النظر عن الحق والباطل والتقوىٰ والصلاح والعقيدة والايمان، فأن من كان مرتبطاً بالقبيلة فهو قريب من اعضاء القبيلة وتابع لها، وكل من لا يرتبط بها فهو «غريب».

وكذلك الحال في المذهب القومي.

ففي النظام القبلي تقام الحروب و يستتب السلام والصلح من اجل القبيلة، والانسان المرتبط بالقبيلة يفاخر بنسبه القبلي ويحتقر الآخرين، وكان الفرد في ظل هذا النظام يشعر بالأمن والطمأنينة، وهكذا الحال في المذهب القومي. حتىٰ ان بعض عناصر الدين القبلي «الطوطم» انعكس في المذهب القومي، فكل قبيلة كان لها «طوطم» خاص حيث ان افراد القبيلة كانوا يشعرون، ان الروح الحامية للقبيلة مستقرة في «الطوطم»، واليوم فان «الوطن» هو «الطوطم الكبير» للانسان المعاصر والمتحضر.

ان المذهب القومي غير منطقي و مرفوض كما هو الحال بالنسبة للطوطمية القبلية. فالبعض يحارب من اجل الاسد (شعار بريطانيا) والعلم الازرق، والبعض الآخر يحارب من اجل الصقر (شعار ألمانيا)، او من أجل العلم الاحمر!!!

وكانت الطوطمية بالأمس عاملاً لتوحيد القبيلة واليوم يلعب «الوطن» نفس ذلك الدور.

1.Natio

2.Hayes.

3.Nation.

4.Kohn

5.Baron

6.Secularism

الفصل الرابع
فلسفة دحض القومية

١ــ الفرق بين «حب الوطن» والقومية:

إنَّ «حب الوطن» (المسمىٰ عند العرب بالوطنية وعند الغرب، باتر ياتيسم) و «ناسيوناليسم» (التي تعادل القومية عند العرب)، هما ظاهرتان مختلفتان تماماً، لكنه يتم في بعض الاحيان نسيان الفرق بينهما.

«فحب الوطن» هو احساس وشعور غريزي وطبيعي عند الانسان لكن القومية ليست «احساساً» او «شعوراً»، وانما هي «عقيدة» و «فكرة»، وضعت على اساسها لبنات غريزة «حب الوطن».

و يقوم المذهب القومي على اساس غريزتين حيوانيَّتين للانسان ,وهما «الميل للجماعة» و «التعلق بالارض»، وتمتاز سائر الحيوانات الاخرىٰ بهاتين الغريزتين ايضاً. ونشأت القومية من هاتين الغريزتين البسيطتين اللتين جعلتا من القومية «شبه مذهب» ولقد تبدل هذا الشعور البسيط ــ فيما بعد ــ الى «تعصب» مدمر ومهلك.

٢ــ القومية تعتمد الغريزة البهيمية للبشر:

يعتبر «التعايش الجماعي» غريزة من غرائز الانسان التي تشترك الحيوانات معه فيها.

فالنمل والنحل كُلٌّ منهما يعيش بصورة جماعية، وعندما تُحِسُّ الخيول بالخطر تقرِّبُ الرؤوس بعضها لبعض وتجعل أدبارها الى الخارج متخذةً منها حزام أمان لوقايتها من الخطر، والثيران الوحشية عندما يقترب الخطر منها، تدفع بابقارها وعجولها الى داخل القطيع ثم تبدأ بالدفاع*.

فالتعلق بالارض والديار و «الوطن» هو من الغرائز الحيوانية للبشر. وإنّ الكلب والقط يتعلقان بالمكان الذي يعيشان فيه، والطير يأنس لعشه، ومهما ابتعدعنه فانه يعود ثانية اليه.

و هكذا فان «العيش الجماعي» والتعلق بالارض، هما من الخصائص المشتركة بين الانسان وسائر الحيوانات الاخرىٰ.

٣ــ اسس الوحدة الجماعية في المجتمع الانساني:

منذ اللحظة التي تخطّى فيها الانسان الحالة الوحشية وتبعاً لغريزته، اتجه نحو التمدن والحياة الاجتماعية.

والقضية التي كانت تشغله على الدوام هي؛ ماهي الأسس التي يجب ان يبني عليها حياته الاجتماعية ووحدته الجماعية...

هل هي «التراب» و «الدم» و «اللغة»؟ أم هي «العقيدة» و «الفكر» و «العقل»؟

تقوم الحيوانات انطلاقاً من غرائزها ببناء حياتها الاجتماعية على اساس «الدم» ــ الاشتراك في النوع ــ و «التراب».

ومنذ بدء التأريخ كان هناك خطان متوازيان؛

١ــ خط الأنبياء والاديان العامة التي تبنىٰ فيه الوحدة على اساس العقيدة والايمان، تلك الوحدة التي اوصلها الاسلام الى ذروتها. وبذلك تأسست امة عقائدية باسم الامة الاسلامية.

---

* The Descent of Man p14.

٢ــ والخط الآخر، «خط الجاهلية» الذي اعتمد الوحدة على اساس العنصر واللون والحدود الجغرافية واللغة والكيان السياسي.

اما الانظمة الطوطمية والقبلية والحضارة اليونانية القديمة والرومية والكلدانية والآشورية، فكانت تبحث عن اسس الوحدة في العناصر المذكورة اعلاه. وهذا الأمر يعني حسب تعبير القرآن مواصلة لخطي الشيطان و (آدم). الشيطان الذي يرى ان ملاك التفوق هو الخلق من النار ــ ملاك العنصر والدم ــ (خلقتني من نار وخلقته من طين)، وآدم وضع في اعتباره «العقل» و «الشعور» و «الارداة» لا «الدم» و «العنصر» ولذا سجدت له الملائكة.

٤ــ لماذا ينبغي للانسان اعتماد «العقيدة» اساساً للوحدة لا «الدم» و «التراب»؟:

اتضح بأن الوحدة على اساس «التراب» و «الدم» ترجع للغريزة الحيوانية للبشر والتي يشترك فيها مع بعض الحيوانات. ولا ترجع الى خصائص الانسان البارزة التي تجعلة يتفوق على بقية الكائنات. لكن هل يجب، في نطاق الانسان، ان يكون «التراب» و «الدم» اساس الوحدة؟ ام شيء آخر؟

للاجابة على هذا السؤال يجب في البداية معرفة ماهية الانسان الخاصة.

الانسان «حيوان» وتعبير القرآن ــ طين ــ فيه «روح الهية» اي ماهية خاصة وماوراء الحيوانية. ولهذا توجد ميزتان في طباع البشر؛

احداهما: الميول الحيوانية التي يتساوى فيها مع بقية الكائنات.

والاخرى: الميول الانسانية الخاصة والتي يتفوق فيها على سائر الحيوانات.

والميول الحيوانية «الغرائز» هي القاسم المشترك بينه وبين بقية الكائنات الحية وحسب قول فرويد ومكدوغال، فان الغريزة هي قوة رمزية وغامضة، تكون فعالة في حياة الانسان بواسطة الهيكل البدني. ويقوم الكائن

الحي ـ حسب الضرورة الغريزية وبدون تفكير وعلم ـ بسلسلة من الفعاليات والنشاطات.

والغرائز في طبايع الانسان، كغريزة الأكل ـ والرغبة الجنسية والرغبة في الخصام والتعلق بالتراب والدم والمال وغيرها ـ تنشأ من طبيعته الحيوانية ويكون سلوك الانسان من هذه الجهة شبيهاً بسلوك الحيوانات.

واستناداً الى ماهية الانسان المتطورة من الناحية البايولوجية فان الغرائز الانسانية تكون مرنة ورخوة جداً، على العكس من الحيوانات. ولذلك يكون الانسان بعيداً عن الحيوانات، وان سلوكه ـ على عكس الحيوانات ـ غير تابع لحصيلة الفعاليات الغريزية بل ينبع من الشعور بالتفوق.

وهذا الشعور، خاص بالانسان وهو مقياس افضليته واساس تباينه مع بقية الكائنات الحية. «فالعقل» و «الشعور» و «الوعي الذاتي» و «الايمان» هي من مظاهر الشعور والميول الانسانية الخاصة والبارزة وكذلك فحب الاستطلاع، والطموح، وطلب الكمال هي الاخرىٰ من هذا القبيل.

والعامل المسيطر على سلوك الانسان والموجّه لطاقاته في الحياة، والمحك والمعيار لمواقفه وتصرفه لايخرج عن نطاق «الوعي» و «الشعور» و «العقل» والايمان، التي تميزه عن بقية المخلوقات، لان الغرائز المشتركة بينه وبين الحيوان لا تمنحه ميزة الأفضلية.

ومن هنا نجد «الكمال» والفكر والعقل تأخذ بالانسان الى مستوىٰ اعلى من مستواه الحيواني، بحيث تكون له القدرة على تغيير الكثير من المقتضيات الغريزية، وتصبح المشتركات والمفارقات للافراد، والمجاميع الانسانية غير تابعة بصورة مباشرة من الغرائز وانما هي وليدة العقل والارادة.

وهذه الملاحظة تجعلنا، نفهم الخطأ والانحراف في الفكر القومي الذي يعتبر «التراب» و «الدم» الملاك والعامل المسيطر على سلوك الانسان، وكذلك ندرك من خلالها ايضاً الخطأ الفاحش في الشيوعية التي تعتبر «البطن» ـ غريزة الاكل ـ العامل الاساس، او كما يعبر فرويد عن ذلك بالغريزة

الجنسية الحيوانية، ومن خلال كل ذلك يتوفر لدينا فهم عن عقيدة الانبياء.

ان الملاك أو المعيار في جميع تلك العقائد لا يخرج عن نطاق الغرائز التي لا تمنح الانسان اي امتياز، بل وتغضُّ النظر عن الخصائص الانسانية البارزة وتقلل من اهميتها.

اما في رسالة الأنبياء فان المحك والملاك والحد الفاصل والمصيري ليس هو «التراب» و «الدم» وغريزة الاكل، بل «العقيدة» و «الفكر» و «الهدف» والكمال المطلوب، المحصورة في اطار «الوعي» و «العلم» و «العقل» التي تجعل الانسان اشرف المخلوقات وتمنحه القدرة على ان يسخر كل العالم لمنفعته.

وطالما يربط الانسان نفسه بعلائق «التراب» و«الدم» وغيرها و يبدي اخلاصه لها فانه في الواقع باق في مستواه الحيواني الموجود، ولكن في تخطيه لهذه الحالة وتأكيده الصادق على «العقيدة» والفكر، يبلغ السمو في اطار الخصائص الانسانية.

ان رغبة الانسان وعلاقته يجب أن لا تظهرا عن طريق الغرائز وانما عن طريق الوعي والشعور والتعقل والحكمة.

ان التطرق الى الحياة الغريزية للانسان كما هو الحال في «الفكر القومي» وباقي الافكار الغربية، عمل خاطئ وغير سليم، وعبث يؤدي بالانسان الى الانحطاط الى مستوى الحيوانات، وهي غير مجدية من الناحية العملية. لان الخصيصة الانسانية المتميزة تتمثل بالوعي بينما تكون الغريزة فيه ضعيفة.

ان التضحيات التي قدمها الانسان، على مر التأريخ، من اجل العقيدة، هي اكبر دليل على بطلان التصور الغريزي الحياتي. فالانسان هو «انسان» لاغير وليس طيراً، وعليه ان يقيم الوحدة في الحياة على اساس «العقيدة» لا العلاقة بالتراب و الدم والمال والقوة. ولهذا نرفض جميع الافكار الخاوية والمهلهلة بما فيها «القومية» والشيوعية ولا نتمسك بغير الرسالة الالهية

التي تعتمد «العقيدة» وطلب الكمال والطبع الانساني المتميز والخاص.

٥ــ القومية وليدة الصدفة الطبيعية لا «الخيار» والارادة الواعية للانسان:

ان المذهب القومي يرىٰ ان الانتماء القومي يأتي من باب الصدفة الطبيعية في حين يعتبره الاسلام ناشئاً من «الخيار»، لذلك فان الانسان يقرر مصيره من خلال الوعي والارادة الحرة.

فأساس الفكر القومي يقوم على التعايش الجماعي في ارض معينة او يقوم على العنصر واللغة دون ان يكون للانسان اي دور ارادي في هذا الامر وبعبارة اخرىٰ فان عامل الصدفة يلعب دوره في ذلك.

اذن كيف يمكن للانسان التخلص من التعلقات العرقية واللونية واللغوية الخاصة؟

ان اعتبار «الصدفة الطبيعية» المحك والمعيار الاصلي للحياة السياسية ــ الاجتماعية للفرد، يعني في الحقيقة، التقليل من شأن الانسان ومنزلته المتفوقة على بقية الكائنات. «فالخيار» و «الارادة الحرة» كلاهما يبرران وجود الانسان وماهيته ويعطيانه صفته الانسانية.

لكن المذهب القومي ينتزع هذه المنزلة من الانسان ويجرُّهُ الى الانحطاط، بل ويقيده في اطار «مسقط رأسه»، ثم ان هذا المذهب في جوانب منه، يرفض الارادة الحرة للانسان.

والتجربة النازية في ألمانيا الهتلرية دليل قاطع على صحة هذا الادعاء. فالشعار القومي الهتلري الذي تمثل بـ «من كان آري العنصر والماني اللغة في الاصل، فهو الماني شاء أم أبىٰ». وكانت عاقبة هذا المذهب هي احتلال اراضي الآخرين بحجة كون أبناء تلك المناطق من اصل آري، دون رضاهم.

الفصل الخامس

معضلات القومية

١ــ لامنطقية اسس المذهب القومي:

يقول هربرت لوثي: («القومية» مذهب يعتمد على حفنة من «الجزميات» التي تفتقد المسوغ العلمي والعقلي ولا يعتقد بأصالته سوى أتباعه*)

ولم يتمكن انصار هذا المذهب من توضيح كيفية انطباق اسسهم على جميع شعوب العالم، ولاماهية العوامل البنّاءة للهوية المستقلة لشعبٍ ما، ولاالميزة التي تفصل شعباً ما من الناحية الطبيعية والنفسية عن شعبٍ آخر والتي لا تتوفر عند غيرها.

ان دراسة مؤلفات أصحاب المذهب القومي في هذا الصدد لن تعطينا ايضاحات وافية وانما تعكس عدم التجانس في هذا المذهب اضافة الى عدم وجود المسوغ المنطقي.

ويحاول منظرو المذهب القومي التأكيد على العوامل الجغرافية واللغة والعنصر والطبيعة السياسية والاقتصادية والثقافية والتاريخية. معتبرين التمسك بالعناصر البنّاءة للهوية المستقلة لشعب ما و المحصورة في اطار الارض والدم

---

* Johann Herder: A Rehabilitation of Nationalism, P.85 London 1962.

والتأريخ، عبادة في حد ذاتها.

والآن لنبحث في اصالة ومنطقية كل عامل من هذه العوامل باعتبارها عوامل الوحدة والمحك والمعيار في الهوية المستقلة لمجتمع ما:

أ ـ القطر والحدود الجغرافية:

القطر او الوطن، مفهوم اعتباري محض و ليس مفهوماً طبيعياً، و بديهي ان مايعتبره الانسان «وطناً» ليس إلاّ المدينة والمنطقة التي يعيش فيها، وكل مايتعدّى ذلك فهو افتراء وإلاّ لماذا يعتبر الانسان نفسه من «مصر» وليس من «العالم العربي»؟ ولماذا يعتبر نفسه عضواً في الجامعة العربية وليس فرداً آسيوياً؟

هذا امر اعتباري وذوقي، وليس له اي اساس منطقي.

ولماذا يرىٰ الفرد المولود في منطقة «ايرلندا» ان وطنه هو انجلترا وليس ايرلندا؟

لقدتم تخطيط حدود الكثير من البلدان، خاصة البلدان الافريقية وحددت بخطوط وهمية معيّنة، ثم جاء القوميون ليطلبوا من الناس التعصب لهذه الخطوط الحدودية المتعرجة التي رسمها الاستعمار على خارطة آسيا وافريقيا، و يعلنوا عن حبهم ووفائهم لهذه الحدود المرسومة، يتحدثون عن قدسية تلك الحدود و يقولون للناس ان من يعيش داخل هذه الحدود «قريب» لنا ومن كان خارج هذه الحدود «غريب وأجنبي» دون ان يكون لتصوراتهم اي اساس منطقي. ان تعلق الفرد «بالتراب» و «الارض» امر طبيعي وليس معقولاً، فالفرد الذي يتصور انه ينتمي للبلد الفلاني، فان تصوره ينبع من التلقين المستمر له بان الارض التي يعيش عليها هي وطنه وليست سائر الاراضي الأخرىٰ.

ان «الوطن» من الناحية الجغرافية هو في تحول مستمر. فافغانستان كانت. جزءاً من ايران الأمس، فلماذا يعتبر المجاهد الافغاني اليوم نفسه افغانياً وليس ايرانياً؟ ان كل ذلك يتوقف على التلقين المستمر له.

والكردي العراقي —ناهيك عن الدين— باي قاسم مشترك يرتبط بالفرد العربي العراقي، و يعتبر نفسه عراقياً وليس كردستانيا!! لكن القوميين يفتقرو ن الى أبسط منطق لتبرير مثل هذه المسائل.

ب — اللغة:

إن هر برت لوثي (١٧٤٤— ١٨٠٣) و يوهان فيختة (١٧٦٢—١٨١٤) هما من مشاهير دعاة القومية في المانيا خلال القرنين الثامن عشر و التاسع عشر. وهؤلاء اعتبروا اللغة و التأر يخ من اهم مقومات تكو ين الشخصية القومية للشعوب، وان اللغة —بتصورهم— هي المظهر والماهية الاساسية للروح القومية، والهو ية المستقلة لأيِّ شعب. وسار كالبغاء على هذا المفهوم بعض القوميين في العالم الاسلامي امثال نامق كمال (في تركيا) ونديم (في مصر)، معتبر ين اللغة المقوم الاساسي في الشعور القومي والوطني.

لكن الحقيقة غير ذلك إذ ان اللغة والتار يخ المشتركين لقوم ما لن يستطيعا تلقائياً، ان يبثا الوعي القومي في نفوس الناس.

إن تأر يخ ولغة الامر يكيين الذين عاصروا جورج واشنطن لم يكونا سوىٰ تأر يخ ولغة الانجليز، لكنهم انفصلوا عنهم ليظهروا كقوم مستقلين. وفي سو يسرا توجد ثلاث مناطق بثلاث لغات، الا ان الشعور القومي مازال قائماً. وفي الهند توجد (١٤) لغة ولاتجمع الناس أية لغة سوىٰ اللغة الانجليز ية.

لذلك اذا كانت اللغة المقوم الرئيسي للوحدة والهو ية المستقلة لشعب ما، فلماذا لم تتمكن انجلترا او امر يكا الشمالية —مع وجود اللغة المشتركة— ان تكونا شعباً واحداً؟ ولماذا لم تفكر بلدان امر يكا اللاتينية —باستثناء البراز يل الاسبانية اللغة— التي تتحدث شعوبها بلغة واحدة، من اقامة الوحدة القومية؟

و بديهي اننا لسنا بصدد إنكار دور اللغة المشتركة في تسريع مسيرة الاتحاد والتلاحم، إذ ان اللغة وسيلة يمكن من خلالها ان يتصل الافراد ببعضهم بصورة مباشرة، وتوفر لافراد الشعب التميز بالادب المشترك الذي يعتبر

بحد ذاته عاملاً في بث الشعور الوحدوي بينهم.

ان هدفنا هو التذكير بان اللغة ليست المقوم والمكون «للقومية» بالرغم من انها تستطيع التعجيل بهذا الامر.

وهناك شعوب كثيرة كانت متفرقة فتحولت الى شعب واحد (كما هو الحال في سويسرا) رغم اختلاف لغاتها، وعلى العكس من ذلك نجد ان بعض الشعوب التي تتحدّث بلغة واحدة، تفصل بينها فواصل كبيرة، وتعيش الواحدة منها بعيدة عن الاخرى. اذن فاللغة لا تشكل اساساً قوياً لتكوين القومية. بالامس سعى عبدالناصر — مع بقية القوميين العرب — لتوحيد العرب على اساس مقوم اللغة، لكنهم لم يواجهوا إلاّ الفشل.

ومع ان مسيحيي لبنان المارونيّين يتحدثون بنفس لغة المسلمين — اللغة العربية —، الا انهم ومنذ ست سنوات يعيشون حرباً مع هؤلاء، و يعتبرون أنفسهم أقرب الى الاوروبيين من المسلمين.

اضافة الى ذلك نشاهد تعدد اللهجات في كل بلد، والواقع ان هذه اللهجات ليست الا تعبيراً عن لغة، فالعربي الليبي لايتمكن من فهم سوى ١٠٪ من اللهجة السعودية.

ومع الاخذ بنظر الاعتبار تلك الحقائق فان عامل اللغة لن يستطيع ان يكون المقوم الأساس في تكوين القومية.

ج — التأريخ والتراث والحضارة:

صحيح ان التاريخ والتراث يحركان شعور الناس أزاء الوحدة والاشتراك ، لكن القوميّين يتناسون ان أساس الوحدة التاريخية والتراثية والحضارية في الشرق، وخاصة في العالم الاسلامي هي «العقيدة»، لا المقاييس الجغرافية. فايران بعد دخولها الاسلام ارتبطت بالبلدان العربية والباكستان، من الناحية الحضارية والتراث الاسلامي لا من ناحية التراث والحضارة الزراد شتية القديمة. وكذلك فان وضع مصر من حيث التراث والحضارة كان اشبه بوضع ايران بعد الاسلام منه الى «الحضارة

الفرعونية» ان التأريخ والتراث كانا يقومان على اساس العقيدة وقد اصبح جميع المسلمين بعد ظهور الاسلام يتمتعون بتأريخ وتراث واحد. فالحضارة القديمة للفرد الايراني والعربي والتركي والباكستاني والمسلم الهندي، ليست إلا الحضارة الاسلامية، لكن المذهب القومي يسعى لاعطاء هذه الحضارة صبغة «ايرانية» او «عربية»، بغية اثارة الغرور والشعور بالعظمة القومية في الناس واعادة الهيكل المتفسخ لتأريخ وتراث مرحلة ماقبل الاسلام واحيائه.

لقد سعوا عبثاً، لاحياء التأريخ والتراث اللذين لايمتان للتراث والحضارة الفعلية للناس بأية صلة.

ولذلك لا تستطيع بقايا تلك الحضارات ان تؤثر مثل الحضارة الاسلامية في الناس وتأخذ بأيديهم نحو الوحدة والنصر.

ان القوميين لا يفكرون في تجديد واحياء آثار الحضارة القديمة المليئة بالمبالغة والتزييف والمغالطات فحسب، بل يسعون — من خلال اظهار عظمة العنصر الايراني اوالعربي اوالتركي ـ الى القضاء على المشاعر الاسلامية والتقليل من شأن التأريخ والحضارة الاسلاميين وتجاهلهما بقدر الامكان.

لكن سعيهم هذا، طفولي، ينشأمن التعصب الاعمى وهو في الوقت نفسه ينقض الغرض الذي جاء من اجله، وكما يقول المعلم الشهيد الدكتور علي شريعتي «ان العنصر الايراني لم يَر على مر التاريخ مرحلة افضل من العصور الاسلامية العظيمة، لاظهار استعداده ولياقته ومهارته».

وخلافاً لما يقوله القوميون فان ايران وتركيا وبقية بلدان الشرق الاوسط، عندما اعتنقت الاسلام ابتداءاً من القرن السابع فانها صهرت نفسها في الاسلام بحيث لم تعد تملك اليوم تاريخاً منفصلاً عن التأريخ الاسلامي، كما أن عظمة هذه الشعوب هي بمستوى دورها في دفع عجلة التراث والحضارة الاسلاميين الى الامام. وهذا المكسب العظيم للشعوب الاسلامية — نتيجة اعتناق الاسلام — لايقاس اطلاقاً بماضيها الحضاري. ولو شاءت البلدان الاسلامية التفاخر بماضيها فلن تجد رصيداً تعتمد عليه سوى الاسلام.

اضافة الى ذلك فان اعتبار التأريخ مقوماً بنّاءً في هوية شعب ما، وأساساً في «القومية» العنصرية، لهو عامل غير منطقي ورخو الاساس، فضلاً عن انه مثير للفتن، لان حدود البلدان لم تكن على مر التأريخ مستقرة على حد معين. فافغانستان حسب التأريخ كانت جزءاً من إيران فكيف يمكن اعتماد التاريخ اساساً «للقومية المستقلة»؟

د ــ العنصر:

ان اغلب القوميين يعتبرون العنصر عاملاً مهماً في تكوين وصياغة القومية لكن التحليل الدقيق والعميق يثبت وهن وعدم منطقية هذا الركن من المذهب القومي، وهذا الركن يفتقر كباقي الاركان الاخرى للمذهب القومي الى أدنى اساس عقلي وعلمي، إذ انه تعصب اعمى يقوم على الاوهام والخيالات.

فما هي العنصرية؟

الجواب: شعور بالتضامن على اساس الدم.

وأولى الاواصر التي تظهر على اساس الدم وتكون لها حقيقة عينية، هي التعلق بالأب والام، وعندما تتسع هذه الاواصر فانها تنفذ الى العائلة ثم الى القبيلة وبالتالي الى العنصر، وآنذاك تصبح الفاصلة بين الانسان واجداده بدرجة لايمكن معها اثبات مــا إذا كان الانسان الفلاني من هذا العنصر ام لا، وهل كان هناك مفهوم باسم العنصر الآري او السامي في التأريخ؟ وهل هناك من يستطيع ان يثبت انه «آري» العنصر؟

وعلى سبيل المثال فان الكثير من أبناء الشعب الايراني يعتبرون انفسهم سادة ومن سلالة النبي الاكرم(ص) الذي لم يكن آرياً، فهل تستطيع البقية الباقية التي ليست من سلالة النبي ان تدعي انه لم يجرفي عروق اجدادها خلال آلاف السنين سوى الدم الآري.

ان الاعتقاد «بالعنصر» و «الوحدة العرقية» لا يستند الى أية حقيقة

علمية وعينية مطلقاً، بل هو وهم ذهني وخيال لا اكثر، اراد اصحاب المذهب القومي اقامة العلاقات الاجتماعية— السياسية، على هذا الوهم و «المجهول المطلق» فيالها من سخرية!!!

واذا تقرَّر ان يكون «الدم» هو الاساس كما يتصور القوميون والعنصريون فلماذا لانتخذ من اسلافنا الاولين أي آدم وحواء— بداية النوع البشري — منطلقاً لنا؟

فيجب ان نستند والحال هذه الى الانسانية بدلاً من العنصرية والى الاممية بدلاً من القومية. وهذا الاساس اكثر منطقية من التصورات العنصرية الواهية والمجهولة.

ولو افترضنا بان العنصر «الآري» او «السامي» له أصالة تأريخية، فمن البديهي اننا اذالم نتوقف عند هذا الحد ورجعنا الى نقطة تاريخية أبعد فسنجد ان جميع العناصر البشرية ترجع الى اجدادنا الاولين، اذن فلماذا لانتخذ ذلك اساساً؟

هـ— المؤسسة السياسية والعامل الاقتصادي:

إنَّ بعض المذاهب القومية يعتبرالعامل الاقتصادي والطبيعة السياسية مقومين «للقومية». ومع ان الايرلنديين يُعتبرون من الناحية السياسية جزءاً من انجلترا، لكنهم يَعتبرون انفسهم شعباً مستقلاً. والواقع ان هذه الحالة كانت موجودة في التأريخ القديم وما تزال قائمة ليومنا هذا. اما العامل الاقتصادي فانه يؤدي في بعض الاحيان الى التضامن كما في الاتحاد الجمركي في الولايات الالمانية (١٨١٩— ١٩٥٢) والذي جاء نتيجة للوحدة السياسية لكن هذه النماذج المحدودة هي استثنائية، ولا تشكل قاعدة، لان الوفاق والتنسيق في المصالح الاقتصادية للفئات المختلفة لا تُعدّ من الشروط اللازمة لتكوين الوحدة القومية.

وبذلك نلاحظ ان الأسس التي تقوم عليها الافكار القومية، ضعيفة وغير منطقية، واذا كانت في بعض الحالات قد ساعدت على تحريك المشاعر

القومية فلا تعتبر عاملاً مصيرياً وقاطعاً لاقامة الوحدة والمحافظة عليها.

ولهذا تصوَّر القوميون الفرنسيون ان اعتبار الانسان نفسه جزءاً من الشعب الفرنسي او الالماني او الانجليزي يأتي وفق ارادته واختياره، ومالم يرغب الاشخاص في الانتماء لشعب ما فان اللغة والحدود الجغرافية المشتركة وايضاً العنصر والتأريخ المشتركين لن تجدي نفعاً ولا تستطيع لوحدها ان تحرك في نفوسهم المشاعر القومية.

٢ــ الوحدة على الاسس المذكورة، مقدمة للخلاف والفرقة بين الافراد:

ان اية محاولة لاقامة الوحدة على الاسس المذكورة لا تؤدي إلاّ الى خلافات اعمق واكثر بين الافراد والى جعلهم في مجابهة مستمرة ضد بعضهم البعض. فالوحدة على اساس القطر (الحدود الجغرافية) او العنصر او اللغة لا تعتبر اطاراً يشمل في النهاية جميع الافراد، بل هي حواجز بين الافراد تفصل قوماً عن قوم و تعمق الفرقة بينهم.

وتستطيع الحدود العقائدية ان تنتشر وتتوسع دون الفرض والاكراه وذلك من خلال الاعتناق الحر لتلك العقائد من جانب الافراد والشعوب بحيث يمكن ان تؤدي في النهاية الى وحدة افراد البشر وهذا ليس بالمستحيل. الا ان القوميات المبتنية على الحدود الجغرافية وتباين العنصر واللغة لن تستطيع ان تضم جميع الافراد، بل تجعل الوحدة بينهم امراً مستحيلاً.

ان الافكار القومية، تقسم البشرية الى مجاميع و «شعوب» ولايمكن لها ان تصبح مقدمة لوحدة بشرية شاملة، فضلاً عن ان تقدم حلاً لمسألة «الأقليات» و «الاجانب».

لكن «الامة» التي تتكون على اساس العقيدة تشكل وحدة منفتحة يستطيع كل من اعتنق تلك العقيدة مهما كان عنصره ولونه ولغته، ان يأخذ مكانه فيها. وهذه الوحدة العقائدية بامكانها ان تنتشر وان تضع بالتالي اللبنات

الاولى لـ «الأخوة البشرية في العالم».

والحقيقة ان القاعدة والاساس السليم والعلمي والمنطقي و «الانساني»، لبناء وتكوين الوحدة، تكمن في «العقيدة» والرسالة الالهية، اما العوامل الاخرى قياساً بالعقيدة والرسالة الالهية، فهي جانبية وفرعية، لان التشابه الفكري والعقائدي يطغى على العوامل الثانوية كالعنصر واللغة واختلاف الاقطار.

وكما لاحظنا فان الأسس التي يستند عليها القوميون ليست شاملة ومنطقية. وفي المقابل فان فكرة «الامة على أساس العقيدة»، والتي يرفع الاسلام رايتها، تتمتع بالاصالة العقلية ولها ما يبررها بصورة كاملة. فالافراد — الذين يؤمنون بفكرة واحدة وتصور كوني مشترك واعتقادات دينية وتراثية وهدفية واحدة — يشكلون —بالتأكيد— «امة» واحدة.

ولكن، طالما هناك تعصب قومي و «تقديس للوطن» فلا يمكن ازالة اخطار الحرب والصراع بين افراد البشر. لان «الوحدة القومية» تؤدي بصورة ديالكتيكية الى «الفرقة والمجابهة العالمية» وهذا التناقض لايحل إلا عن طريق استخدام القوة واستغلال الآخرين. اما الوحدة على اساس العقيدة، وتقبلها واعتناقها بحرية فهى جديرة بازالة جميع الفوارق والاختلافات وتوفير «المساواة» والاخوة.

٣ــ المذهب القومي يؤدي الى نقض الفرض:

ما الذي يجزّئ البلد؛ «الدين» ام «القومية»؟

إنَّ هدف القوميين يتمثل بتكوين الوحدة، لكن المذهب القومي ينتهي دائماً الى نقض الغرض و يعطي نتائج عكسية.

فالهدف النهائي للقومية هو تكوين الوحدة الوطنية والمحافظة عليها.

اما الوسائل المنتخبة لتحقيق هذا الهدف فتتمثل بتأجيج المشاعر والتضامن المتشابك على اساس الولاء القومي واللغوي او العرقي. ولكن هناك في

كل بلد اقليات اقليمية وعرقية ولغوية، وعندما تواجه هذه الاقليات، موجة اعلامية من قبل الاكثرية ازاء المشاعر القومية، فانها تشعر بأن هويتها المستقلة في طريقها الى الضياع والاضمحلال ضمن الاكثرية، فتضطر الى اظهار رد فعلها. ولذلك فغالباً ما نشاهد ان الاعلام القومي للحكومة او الاكثرية، يؤدي الى تأجيج المشاعر القومية الاقليمية او العرقية او اللغوية بين الاقليات، وجَرِّ البلد نحو التفرقة والتشتت. وليس هناك من الناحية المنطقية ايضاً مايدل على افضلية قومية الاكثرية، على المشاعر القومية للاقلية.

فعلى سبيل المثال: لماذا تُعتبر القومية الانجليزية جيدة ومحترمة، بينما يتعرض أتباع القومية الايرلندية للانتقاد والملاحقة والاعدام؟

واذا كان لبعثي العراق الحق في التحدث عن قوميته متى شاء، فلماذا لايحق للفرد الكردي العراقي ان يتعصب لقوميته الكردية خاصة وانه ليس عربياً؟! فلوكان (التعصب) للقطر والعنصر واللغة جيداً فانه يجب ان يكون جيداً للطرفين، واذا كان سيئاً فانه يجب أن يكونَ سيئاً للطرفين ايضاً، إذ لايمكن الاجحاف في الحكم. واذا كانت القومية الامريكية جيدة للبيض فلماذا يجب ان يكون الاتجاه القومي للزنوج سيئاً؟!

وهكذا فان القومية فضلاً عن عدم استنادها الى اسس منطقية، فانها تنتهي بنقض الغرض نفسه وفشله، ولابد لها من استخدام القوة في حفظ سيادة البلد، لتحقيق الوحدة المنشودة، ولكن بنتيجة معكوسة، تنتهي الى التفرقة.

وخلافاً لادعاءات القوميين فان العقائد الدينية لن تثير المشاعر القومية التي تؤدي الى التفرقة وتجزئة البلاد وزرع الخلافات بين أبناء البلد الواحد.

والتمرد في اقليمي كردستان وتركمن صحراء (محافظتان في ايران) لم ينشأ الا بسبب الاعلام القومي المتطرف من جانب رضاخان ومحمدرضا بهلوي المقبورين.

ولن يستطيع المذهب القومي في اي زمن كان، ان يجد حلاً لمسألة الاقليات العرقية والاقليمية واللغوية، بل —على العكس— يعمل على تعميق

التناقضات و تأجيجها بشكل مستمر. وبما ان الملاك ، هو ملاك العرق او اللغة او القومية الاقليمية ونظراً لثبات وعدم تغيير اللغة والعنصر، فان الذين لاينتمون الى ذلك العنصر او لايتكلمون باللغة الفلانية يعيشون –على الدوام– بشكل اقلية، ولايشاركون الاكثرية في مشاعرها وحتىٰ اولئك الذين يهاجرون الى بلدٍ آخر او يصبحون تابعين لبلدٍ ما نتيجة للتغيير في الحدود الجغرافية او نتيجة للغزو، فانهم يشعرون بانهم وحدة مستقلة و «أجنبية» حتى بعد مرورمئات السنين، وكذلك فان الجانب الآخر له نفس الشعورتجاههم. والامثلة عل ذلك كثيرة، إذ ان الارمن في تركيا والعراق وسوريا وايران، والاسكتلنديين والايرلنديين في انجلترا، والزنوج في امريكا هم من النماذج البارزة في هذا المجال.

المذهب القومي لن يستطيع حل مسائل هذه الأقليات بملاك «الدم» و «الارض» و «اللغة»، لكن اذا كان الملاك «عقيدةً»، عقيدة غير تابعة لاي شخص أوجهة و يستطيع كل انسان ان يعتنقها، فمن الممكن حل مسائل الاقليات ،بل والوصول في النهاية الى مرحلة لا أثر فيها لأية اقلية في المجتمع، وهذا الامر ليس مستحيلاً. الا ان مسألة الاقليات في المجتمعات القومية سوف تظل قائمة. خاصة وان هذه المسألة تعتبر حساسة في اكثر الدول الاسلامية و إن إثارة المشاعر القومية تؤدي الى تجزئة البلاد.

ففي ايران و باكستان وتركيا واغلب البلدان العربية لا تتجاوز نسبة الاقليات الدينية ٢ – ٤٪، كما وانهم يستطيعون التمتع بكامل حقوقهم المدنية والانسانية والامنية في ظل النظام الاسلامي، وان الباب مفتوح لأبناء هذه الاقليات للانضمام الى الامة الاسلامية الكبيرة متىٰ شاءوا.

ولكن اذا اعتمدنا «القومية» فان الاقليات الاقليمية واللغوية والعرقية، كثيرة جداً، والحقيقة ان الاقليات المختلفة في اكثر هذه البلدان، تشكل الاكثرية، لان اعتماد «القومية» اساساً، يدفع ويحفز «الكردي» الى «القومية الكردية» والتركي الى «القومية التركية» وآنذاك تمضي هذه الدول

—لامحالة— نحو التفرقة والتجزئة ولن تستطيع المحافظة على وحدتها إلا باستخدام العنف والقوة.

وبما ان ايران (الأمس لاايران الجمهورية الاسلامية اليوم) والعراق وتركيا والباكستان واكثر الدول الاسلامية اتخذت القومية اساساً لها فانها تعاني لحد اليوم من هذه الامراض.

٤ــ هل تستطيع القومية وحدها تفجير الطاقات والابداع عند الشعب؟

يعتقد بعض المفكرين ومنهم هارولد لاسكي بوجوب قبول المذهب القومي لا كحقيقة فحسب، بل كمصلحة ايضاً فيقول:

«على الرغم من كل معضلات القومية ونواقصها وتناقضاتها، فليس هناك شك في ان «العصبية» التي تثيرها القومية من شأنها ان تؤدي الى تفجير الطاقات الكامنة والابداع عند الشعب*».

لكن لاسكي وامثاله اخذوا ظروف الغرب بنظر الاعتبار حيث الدين، هناك، يفتقر الى الـديناميكية والحيوية اللازمتين لاثارة المشاعر والحماس العام، وقد عبروا عن تصورهم من هذا المنطلق.

بينما نرى في تأريخ الشرق والعالم الاسلامي، ان «الدين» يثير ويحرك الشعوب الاسلامية بدرجة اعظم بكثير من «المذهب القومي»، و يوجه الناس نحو الابداع والخلاقية بقوة اكبر وذلك من خلال الالتزام الشديد بدينهم.

---

* Harold.J.Lasky: Nationalism and the Future of Civilization p66, London 1971.

الفصل السادس
مساوئ القومية

١ــ «المحورية» و«الحكم المسبق»

من المساوئ الكبيرة للمذهب القومي هو «التعصب» و «الحكم المسبق» في التقييم. «فالحكم المسبق»، ميل عاطفي قوي يجعل الفرد أو الجماعة غارقة في ذاتها متغافلة عن الحقائق ومتعنتة في الحكم ومتعصبة في التقييم.

و«القومية» في بلدما، تنظر ــ عادةً ــ الى القوميات الأخرىٰ بحكم مسبق، فهي تجبر الانسان على الاخلاص والحب لفئته[١] وجماعته[٢] وتعظيمها، وتعتبر القوميات الاخرىٰ «بمجاميع اجنبية»[٣] أو «خارجة عن الجماعة»[٤] وذليلة، وتنظر اليها بعين العداء.

وهذه الحالة تؤدي بالانسان عند «التقييم» الى اعتبار امور ومنجزات جماعته عظيمة وعدم الاهتمام بالآخرين. و يتجسد حب الذات هذا والانانية والتعصب[٥] ــ النابعة من القومية ــ باشكال متعددة و إنَّ «ذاتية القوم»[٦] وتقديس التراب[٧] و «ذاتية العرق»[٨] والعنصرية[٩] كلها ظواهر مختلفة لهذه الحالة غير المتزنة في القومية.

٢ــ الشعور بالتفوق الذاتي وتزييف التأريخ:

يتميّز الشعور الوطني دائماً بحالة غير متّزنة من «الشعور بالتفوق الذاتي» إذ

يسعى الانسان دائماً من خلال تحقير واذلال الشعوب الاخرىٰ، الى تعميق جذور هذا الشعور وتقويته.

يقول والتر لاكوز[1] عالم الاجتماع المعروف:

«من الخصائص الرئيسية للقومية حب الذات[11] والتقليل من شأن الآخرين، وفقدان روح النقد الذاتي[12] وعدم الشعور بالمسؤولية، وعدم رعاية جانب الانصاف. ولذلك تفقد القومية، الرؤية الواقعية بالتدريج ليسيطر التصور الخيالي على المجتمع*».

ولاجل اظهار الشعور بالعظمة، تلجأ القومية —عادةً— الى الحدس والافتراض والمبالغة والمغالطة وتحقير الآخرين، والثناء غير المستساغ على النفس، والأسوأ من ذلك تزييف التأريخ واختلاق الأساطير والملاحم الوهمية، صانعة منها تأريخاً جديداً.

وفي الوقت نفسه تخشىٰ وتتجنب الواقعية التأريخية والاجتماعية. يقول ويل دورانت[13]: «ظهرت القومية في القرن التاسع عشر فأفسدت ضمائر المؤرخين*».

فلقد كان «تراتيشكه»[14] و «فون سيبل»[15] و «ماك كولي»[16] و «بانكرفت» و «غرين» من الوطنيين الذين اصبحوا مؤرخين، وكل واحد من القوميين يرىٰ ان بلده هو «أرض الله المختارة»! وبقية بقاع العالم مليئة بالشر والهمجية!

والقومية افسدت التأريخ وغمرته بالفوضىٰ الى درجة اقترح احد الحكماء قائلاً:

«لكي يتحقق السلام العالمي يلزم القاء التاريخ جانباً بدلاً من عقد معاهدات الصداقة والتجارة».

---

* Walter Lacquer: Communism and Nationalism in «The Middle East» p8, London 1950

* Will Durant: The Mansions of Philosophy p 239.

ان تزييف التأريخ هو احد المساوئ الكبيرة للقومية. وربما يتصور البعض ان هذه الحالة موجودة في النماذج القومية المتطرفة، لكن ذلك ليس صحيحاً، لأن القومية في حد ذاتها وجوهرها تلجأ الى المبالغة في تعظيم نفسها وتحقير الغير فطالما لا تتمكن من بث شعور مصطنع عن المفاخر بين الشعب، فلن تستطيع توجيه الشعب نحو التعصب لها ومن ثم اتخاذ القرارات والمواقف من خلاله ضد الآخرين.

٣- التعصب القومي أو «العصبية الجاهلية»:

بما ان المذهب القومي يقوم على الغريزة الحيوانية الكامنة في الانسان لا على العقيدة والفكر والارادة والشعور، لذلك فإن «التعصب القومي» والذي يسميه الاسلام «بالعصبية الجاهلية» يُعتبر احد دعائم هذا المذهب. فالشخص الذي يولد من باب الصدفة في بلدٍ معينٍ، فانه يرى الآخرين اوطأ منه أو «اعداءً» له، دون ان يعطي أدنى دليل. وفي بعض الأحيان فان الأبيض الذي يولد في اوربا يعطي الحق لنفسه في تحقير الآخرين والتهجم على الزنوج والاعتداء عليهم ولايتعامل مع الآخرين كما لو يتعامل مع أبناء قومه أو شعبه الى درجة يصبح انشتاين —العالم اليهودي الاصل— مكروهاً ومنبوذاً من جانب الألمان.

فألمانية الفرد أو فرنسيته هي وليدة الصدفة الطبيعية لا «الانتخاب الارادي»، فالالماني والفرنسي يعطيان الحق لنفسيهما لنبذ الآخرين، لأن مفهوم الحق والانصاف يفقد معناه ويحل محله التقييم الازدواجي، في العلاقات مع البشر.

فهل من المنطق والانسانية ان يعتبر شخص فاسد و سيئ، بسبب تعلقه و ارتباطه بقوم او عنصر أولغة خاصة، أفضل من شخصٍ آخرذي فائدة وصلاح لكون الثاني ولد في منطقة خارج الحدود ببضعة كيلومترات؟

وبمجرد التعلق بقوم أو عرق انساني خالص ونقي —أفضل أو أدنى—

يُنظر الى الفرد كمواطن او أجنبي دون الأخذ بنظر الاعتبار عمله وتقواه والتزامه وتصوره، و يفضل على غيره.

وحينئذ يفقد الشرف الانساني والعمل الصالح قيمتهما لأن الفرد مولود في ارض معينة، ويخضع تقييم الدرجات الانسانية لمعيار «التراب» و «الدم» لا لميزان العمل والايمان والتقوىٰ والالتزام.

و بنفس النسبة التي تثار فيها المشاعر والاحاسيس «القومية» فان التعصب القومي والجاهلي يشتد و يتناسب طردياً، ويحصر فكر الانسان في اطار القومية فقط. فهو —اي الانسان— يقوم بدون تقييم وحكم عقلائي بالدفاع عن وطنه، بدافع عاطفي، معتبراً كل شيء خارج وطنه «أجنبياً» و «دنيئاً»، دون اخذ الحق بنظر الاعتبار، و نجده يناصر من كان من جنسه و يتخذ الموقف ضد المقابل. و «العصبية الجاهلية» المرفوضة من قبل الاسلام هي نفس هذا المفهوم. فالقومية توارثت هذه «العصبية» من النظام «القبلي» اللاّإنساني، شاحنة ذلك بابعاد خطرة جداً.

٤ــ القومية تؤدي الى «العنصرية»:

لا مفر للقومية من الانجرار الى العنصرية والتعصب العرقي.

وعندما تسعىٰ القومية لاقامة الوحدة على اساس «التعايش الجماعي والفئوي» على ارض معينة، ولاجل ان تثير التعصب وتجعل من أبناء فئة او جماعة ما «وحدة مستقلة» فانها ستكون مضطرة لتقول، انت ايراني ولك هذه الصفات او انت تركي ولك تلك الصفات والخصائص وهكذا.

و بالتدريج ينتشر هذا التصور بين افراد تلك الفئة او المجموعة فيصبح هذا التركي او ذلك الايراني افضل من غيره، و يتمتع بميزات خاصة دون النظر الى ملاك التقوىٰ والعمل والعقيدة.

وهذه المشاعر القومية تثير نفس المشاعر في البلدان المجاورة محدثة الصراع والتنافس والمجابهة المستمرة، وتؤجج في الوقت نفسه التعصبات العرقية

بين الشعوب. و يشهد التأريخ بأن المشاعر القومية انتهت الى العنصرية؛ فاليونانيون في ذروة حضارتهم اعتبروا غير اليونانيّين «برابرة» و يقول ارسطو: «ان الطبيعة ارادت ان يكون البرابرة عبيداً لليونانيّين»، وقبل أن يكون اليهود وحدة دينية، فانهم كانوا «وحدة قومية» معتبرين انفسهم شعب الله المختار. وكان الروم في قمة حضارتهم يعتقدون بأن على الارض ثلاثة شعوب الروم وحلفاؤهم والهمج!!!

٥ــ الفكرة القومية تؤدي الى الاستيلاء وانشاء المستعمرات:

إن حب الاستيلاء وانشاء المستعمرات هما نتيجة لعوامل ثلاثة: ١ــ العصبية العنيفة ٢ــ الشعور بالعظمة والتفوق على الآخرين ٣ــ الانانية والمحورية، والاخذ بنظر الاعتبار المصالح المادية والسياسية الذاتية وعدم الاكتراث لمصالح الآخرين.

وللأسف فان الافكار القومية تحمل في طياتها العوامل الثلاثة السالفة، ولهذا نجدها على مر التأريخ قدأدت الى الاستيلاء على البلدان الأخرى و انشاء المستعمرات. فبالاضافة الى ان القومية تمهد الطريق للاعتداء والصراع والتنافس المستمر بين الشعوب، فانها تؤدي بالعالم الى الفوضى والدمار والقتل.

فعندما يفكر كل بلد في مصالحه الخاصة فانه يعطي لنفسه الحق في السيطرة والاستيلاء على الآخرين. و بدهي ان الصراعات والتنافس لانشاء المستعمرات ستكون موجودةً على الدوام.

و يعتقد البعض، ايضاً، ان المتطرفين القوميين لهم هذا التصور، لكن التأريخ أثبت أن لاوجود لفكر قومي سليم أو غير سليم، إذ ان الافكار القومية تنجر في النهاية الى الشوفينية والعنصرية.

* * *

وقد يظن البعض بأن «الدين» و «العقيدة» يؤديان الى التعصب وحب الاستيلاء كما في «العنصرية» و «القومية»، لكن اصحاب هذا الظن

يتناسون نقطة ظريفة جداً أو يغضون النظر عنها ولكنها واضحة جداً للعيان.

صحيح ان اية عقيدة قادرة على اثارة «التعصب»، معتبرة نفسها افضل من العقائد الاخرى. ولكن بما انها لا تعتمد على اصالة «التراب» أو «الدم» وانما على اصالة العقل والفكر، فهي تخضع للنقاش والحوار العلمي والنظري، و «العقيدة» لو شرحناها بشكل علمي ومارسناها بشكل عملي لاصبحت تتمتع بجاذبية كافية تستطيع معها أن تجلب لاعتناقها جميع أفراد البشر دون اي اكراه.

وهذا نظام مفتوح، ولكن في المقابل نجدأنَّ «القومية» او العنصرية نظام مغلق على نفسه لايستطيع احد أن يجد لنفسه فيه موطئ قدم إلا بصفة عبد أو مُستَعمر.

وعندما تتوسع «العقيدة»، تجعل من جميع أتباعها «اخوة» و «متساوين»، بينما القومية تبتغي الانتشار والتوسع على حساب الآخرين، فلا مناص من تحولها الى استغلال ورغبة فى إنشاء «المستعمرات».

إن الدين والرسالة – من خلال النظام المثالي السامي الذي يطرحه – يفسح المجال لكل الناس أبيضهم وآسودهم، شرقيهم وغربيهم، ان يلتحموا في وحدة شاملة. إلا أن العنصرية والقومية لا تمتلكان أي سبيل للتوسع الا بسحق الشعوب المستضعفة «فالآري» لايمكن ان يصبح «سامياً»، وتركيا لايمكن ان تكون «ايران» إلا عن طريق استعمارها. بينما العراق ومصر وايران استقلبت الاسلام واعتنقته دون ان يكون هناك أثر للاستعمار او إنشاء المستعمرات. لان منطلق «العقيدة» هو الفكر الذي لايتبع اسلوب العنف أو «الضغط» وانما يأخذ طريقه للانتشار باسلوب التبليغ والارشاد، كما في انتشاره عن طريق التُجار والمتصوفين والدراويش الى اقاصي نقاط آسيا وافريقيا*.

---

* Brown: The Spread of Islam.

وبما ان القومية تعتمد الاساس العرقي والجغرافي، لا الفكري، فلا سبيل لها في الانتشار الا عن طريق السيطرة.

وكما اشرنا في الفصول السابقة فان الاستعمار الهمجي الغربي اجتاح العالم الثالث في القرن التاسع عشر بدافع الشعور والتعصب القومي معلناً الحروب المدمرة والمذابح الجماعية ومبيداً المدن (هيروشيما و ناكازاكي)، وملطخاً تاريخ البشرية بالدم.

اليست هذه الشواهد الحية دليلاً على حب «الاستيلاء» في المذهب القومي؟!. ان المشاعر القومية هي مصدر التوسع واساس الاعتداءات، والقومية هي مصدر الرأسمالية فالقومية تعتدي بدون رحمة وشفقة على الشعوب المستضعفة وتفرض بالقوة اطماعها اللامشروعة باسم «الطموحات القومية» و «المصالح القومية» على الآخرين.

٦ــ تحديد الافق الفكري للانسان:

والقومية تحدد الافق الفكري لدىٰ الانسان وتقيده في اطارين:

الاول: ان يحصر تفكيره «بأبناء وطنه» دون ان يتعدى ذلك الى التفكير ببني جنسه.

الثاني: ان يحصر تفكيره بـ «التراب» و «الدم» و «الوطن» و «العنصر» بدلاً من التفكير بـ «العقيدة» و «المعنويات» و «عمق التصور» وذلك بسبب فكره المحدود.

والقوميون يخضعون لعواطفهم ومشاعرهم خلافاً للعقيدة التي تعتمد العقل والفكر والشعور، فالعقيدة تضع العواطف والمشاعر في خدمة العقل مولدة بذلك حس «الالتزام» و «المسؤولية»، بينما تقوم الافكار القومية بوضع العقل في خدمة المشاعر والعواطف.

1. We — group
2. In — group
3. They group
4. Out groups
5. group ego — centrism
6. Ethno — centrism
7. Chauvinism
8. race — Centrism
9. racism
10. Lacquet
11. Over — estimation
12. Self — Criticism
13. Durrant
14. Treilschke
15. Vonsibel
16. Macauley

الفصل السابع

الاسلام والنزعة القومية

١ــ الاسلام والقومية قطبان متقابلان:

المشاعر الوطنية البريئة مالم تصطدم بالهدف العقائدي المتعالي للانسان، فهي جائزة في الاسلام مثل التعلق بالاب والام والعائلة، وقدوضحنا في الفصول السابقة و بالادلة القاطعة والكثيرة بان «القومية» المعاصرة ليست مشاعر بريئة وانما هي مذهب اجتماعي ــ سياسي ونظام عمل في الحياة هدفه السيطرة على السلوك الفردي والاجتماعي للانسان. وبما أن للاسلام نظامه الفكري والعلمي والسياسي والاجتماعي المستقل و المبتني على الاسس العقائدية الخاصة به، فمن الطبيعي ان تصطدم به القومية كعقيدة ومذهب اجتماعي ــ سياسي. لأن الاسلام غير المسيحية او الاديان الأخرىٰ وليس محدوداً بالعبادات والطقوس الدينية والاعتقادات الميتافيزيقية. فلو كان الاسلام ديناً عبادياً محضاً، لما تعارض مع القومية، لكنه ليس كذلك فهو يتميز بنظام اجتماعي وفلسفة للحياة و بنظم من الاصول الاقتصادية والسياسية. والقومية تتميز ايضاً بمجموعة من الاصول السياسية والاجتماعية المرتبطة بقاعدة عقائدية مستقلة، ولهذا فلا مفرّمن التعارض بين الاسلام و «القومية».والعقيدة الاسلامية لا تساوم ــ اطلاقاً ــ العقائد الاخرىٰ بشأن السيادة على حياة الإنسان والمجتمع الإسلامي فالمسلم لايستطيع في آن واحد ان يكون «مسلماً»

و «مشركاً» او «مسلماً» و «شيوعياً» و كذلك لايمكن له مع حفظه «لإسلامه» ان يكون قومياً مؤمناً واصيلاً.

والقومية لا تتفق مع الاسلام، والاسلام بحكم منطقه الهدفي يعارض هذا المذهب. الاسلام والقومية يشكلان قطبين متقابلين ومتضادين، في الروح والجوهر والاتجاه والهدف.

وسنبين في الصفحات التالية بأن القرآن يرفض وبصرامة الاسس القومية، و يؤكد ان اللغة واللون والعنصر ليست ملاكاً للوحدة او امتيازاً، وان «العقيدة» والتقوىٰ هما ملاك الوحدة والتفاضل. والعقيدة المشتركة هي الاساس في وحدة الامة الاسلامية، والارضية القوية «لقومية» المسلمين تقوم على اساس «العقيدة» لا العرق او الوطن او اللغة ولا حتىٰ التراث.

و يتمثل هدف القومية بتكوين وحدات قومية و وطنية، بينما هدف الاسلام هو الوحدة العالمية. والقومية تعتقد بان بؤرة الوفاء والاخلاص وتعلق الانسان هي «الوطن»، اما الاسلام فيعتقد ان البؤرة تتمثل «بالله» و «الدين».

والقومية تعطي الاصالة للحدود الجغرافية والتميز العنصري بينما يرفض الاسلام ذلك، والقومية «محدودة التصور» وهي «قومية التصور» بينما الاسلام «كوني التصور».

والقومية تمجد و تعظم السنن التأريخية و الحضارية والتراثية والفكرية لشعوبها وتثمن دور الشخصيات التأريخية. اما الاسلام فانه يتجاوز في تصوره الشمولي، الحدود و العناصر والاقوام معتبراً موسىٰ وعيسىٰ (ع) ومحمداً (ص) انبياء للبشرية كافة والقرآن والكعبة كتاباً وقبلة للجميع، وقادة الاسلام الحقيقيين قادة لجميع افراد البشر.

ان هذا التصور صعب القبول بالنسبة لاصحاب المذهب القومي، فهم بتصورهم الضيق والمحدود يعتبرون اعتناق الاسلام ليس الا «ضرراً».

فبدل ان يربطوا الشعب بمحمد(ص) وعلي (ع) يريدون ربطه «بكوروش» و «داريوش» * و بالماضي الحضاري لاحياء ما يسميه الاسلام بـ «الجاهلية».

وبينما يلعن الاسلام فرعون، نجد قوميي مصر يعظمونه ويمتدحونه باعتباره البطل القومي.

ومن هنا كان النظام الايراني ابان الحكم البهلوي المقبور يعرب عن تقديره وارتياحه لاعتبار الدين الزرادشتي والبهائي «ديناً لايران».

وفي عصر سيطرة هتلر على المانيا، انقسم مفكرو النازية الى مجموعتين؛

الاولى: اعتبرت المسيح (فلسطينياً — يهودي الاصل) رافضة بذلك المسيحية.

اما الثانية: فقدسعت الى نفي فلسطينية المسيح مؤكدة انه من عرق وعنصر نورديك (Nordic)!!

اما الاسلام فيصرح قائلاً ان جميع المسلمين هم اعضاء لجسد واحد متساوون كأسنان المشط، وجميع الشعوب الاسلامية؛ العربية والعجمية والسوداء والبيضاء اللون هي سلسلة الوحدة العقائدية وهي مرتبطة ومتصلة بعضها بالبعض الآخر.

والقومية تعتبر التضامن والشعور الديني لأبناء بلد معين مع أبناء بلد ما او بلدان اخرى خطراً على الهوية القومية والوطنية.

اذن فان تصور القومية في مجال الاجتماع والسياسة يناقض التصور الاسلامي. والاسلام يرفضه باعتباره مفرقا للشمل.

ولهذا السبب نجد القوميين في سائر البلدان الاسلامية يعتبرون الانفصال عن الاسلام من شروط نجاح الافكار القومية، ورغم انهم لم يفصحوا عن ذلك لكن ممارساتهم المبطنة تعكس لنا مناهضتهم المستمرة للاسلام.

---

* اثنان من ملوك ايران قبل الاسلام.

٢ــ مكافحة الرسول (ص) للنزعة القومية عند قريش:

مع بداية بزوغ فجر الاسلام وتحقق الثورة الاسلامية، كانت المؤسسة السياسية والاجتماعية الوحيدة في فترة الجاهلية، تتمثل «بالقبيلة» و «القوم» و «العرق» و «اللغة» التي تعتبر اساس التفوق والافضلية. فكانوا يعتبرون «الدم» والارتباط القومي أساس الوحدة، بينماهما ــ في الحقيقة ــ صيغة غير ناضجة للفكرة القومية والعنصر ية المعاصرة. وحتىٰ اللغة كانت ملاك التفوق. وعلى هذا الاساس اعتبر عرب ذلك العصر، سائر الشعوب اعاجم اي صمٌ بكمٌ.

ان الثورة الاسلامية التكاملية استطاعت اجتثاث جذور هذه التصورات والتنظيمات القبلية بشعار «لا إلٰه الا الله» الزلزالي، وازالة كل علائق الدم والتراب واللغة مخضعة إياها للعوامل الفكر ية والعقائدية. والواقع ان النبي الكريم (ص) في تأسيسه للمجتمع اللاطبقي والاسلامي العالمي ازال ــ عملياً ــ كل الفوارق القومية واللغو ية وغيرها من بين الشعوب ليصنع منها مجتمعاً اسلامياً موحداً، بحيث يجتمع ثلاثة مسلمين من شعوب مختلفة ــ سلمان الفارسي، صهيب الرومي و بلال الحبشي ــ في مجلس النبي (ص)، الى درجة ان قيس ابن مطاطبة العربي حين دخل على هؤلاء الثلاثة، دعاهم بالغرباء، فغضب النبي (ص) وقال:

«أبوكم واحد، ودينكم واحد وإن العروبة التي تفخرون بهاليست لأبيكم او امكم، كلكم أبناء آدم وحواء»*

والنبي (ص) اعلن بصراحة: «ليس منا من مات على العصبية، ليس منا من دعا الى العصبية، ليس منا من قاتل على العصبية».

وقد لعب عامل التعلق بالدم والتراب والتفاخر بالاجداد بين قر يش، دور الحائل والحاجز للوقوف بوجه نبيِّ الاسلام (ص)، إذ كانوا يتساءلون عن سبب عدم نزول القرآن على احد افراد مكة او الطائف.

---

* النقل بالمعنىٰ.

«وقالوا لولا انزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم».

(الزخرف:٣)

وبما ان افكار القبائل العربية كانت محدودة بالقومية فان عدم كون النبي منها، بث الخوف في نفوسهم من ان يقوم النبي بهذه الحجة بتكريم وتعزيز قبيلته وقومه، لذلك قال ابوجهل بصراحة:

«إننا متساوون مع بني عبد مناف ونحسن الفروسية مثلهم ولا نقلّ عنهم في الجود والعطاء، فكيف يدّعون اليوم بالوحي والنبوة؟ أقسم إننا سوف لن نقبل رسالة محمد»*

وبالذات فان هذه العصبية العرقية والعنصرية ادت باليهود ـ الذين كانوا منذ زمن بعيد بانتظار ظهور النبي من بينهم ـ الى ان يقوموا بمحاربة النبي محمد(ص) لان العصبية القومية شكلت غشاوة امام اعينهم فلايرون الحقيقة، والاسىٰ يملأهم من كون النبي من نسل اسماعيل لامن «بني اسرائيل».

والتعصب القومي والعرقي جعل اليهود يتحالفون مع المشركين لقتال المسلمين.

وكانت اثارة المشاعر القومية والعرقية سلاح المنافقين في المدينة للوقوف بوجه الاسلام الى درجة ان احد رؤوس المنافقين كاد ان ينجح في طرحه لقضية حرب بغاث وذلك بأن يجر قبيلتين اسلاميّتين (الاوس والخزرج) الى حافة الحرب ضد بعضهما الآخر، فنزلت الآية:

«يا ايها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقاً من الذين اوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين».

(آل عمران: ١٠)

إنَّ عبدالله بن ابي (الذي كان من قادة المنافقين في المدينة ومن

---

* النقل بالمعنىٰ.

المؤمنين بالقومية) كان دائماً يحرك اهل المدينة و يثير مشاعرهم القومية بقوله:

«انكم قمتم عبثاً باشراك هؤلاء في اموالكم و دياركم فلوتخليتم عنهم منذ اليوم، فسيولّون الادبار»*

ثم نزلت الآية لتثبت بطلان هذه الادعاءات:

«هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتىٰ ينفضوا، ولله خزائن السماوات والارض ولكن المنافقين لايفقهون، يقولون لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لايعلمون».

(المنافقون: ٧و ٨)

هذه الدلائل تعكس الابعاد الخطيرة للعواطف والمشاعر القومية والوطنية ضد الاسلام، وتعكس ايضاً انه بعد الكفر والشرك فان التعصب «للدم» والتراب والاجداد والعشيرة والقبيلة هو الآخر يشكل خطراً على الاسلام، بيد ان النبي محمداً(ص) كافح مثل هذه التعصبات بلا هوادة الى ان تمكن من ازالتها من طريق «العقيدة الالهية».

والعداء القومي ضد الاسلام ليس جديداً إذ ان قصته ترجع الى زمن ظهور الاسلام، وماتزال العواطف القومية و «تقديس الأمة» تشكل خطراً دائماً وكبيراً على الاسلام. فعند ظهور القومية نجد العربي يفتخر «بعروبته» لا باسلاميته والمصري يفكر ويتذكر فرعون، والتركي يربط نفسه بهولاكو و جنكيزخان، والايراني يتفاخر بكوروش و داريوش وماني ومزدك * بدلاً من الرسول الاكرم (ص) والامام علي (ع)، والمسلم الهندي يعتبر الشخصيات الاسطورية للهندوس ابطالاً. وبدلاً من ان يتعلق ببئر زمزم يربط نفسه بنهر الكنج. وعلى هذه الوتيرة يتعرض وجود الاسلام للخطر.

---

* النقل بالمعنىٰ.

* ملوك ومصلحون ايرانيون في زمان ماقبل الاسلام.

إنَّ علاقات الاسلام بالقومية و«تقديس الأمة» لم تكن إلا علاقات عدائية لاغير.

الفصل الثامن

اسس المذهب القومي
من وجهة نظر القرآن والحديث

١ــ «وحدة البشر» أم «الوحدات القومية» والعرقية؟:

يتمثل اساس القومية في اصالة الوحدات «القومية» و «العرقية». فالقومية اعتماداً على الأسس العرقية والحدود الجغرافية واللغوية والتأريخية، تقسم الكيان السياسي والاجتماعى للبشر الى «وحدات» مستقلة ومحدودة ومجزأة، بحيث ان افراد كل «وحدة قومية»، يعتبرون كل من هو خارج وحدتهم «اجنبياً»، ناهيك عن ظهور العداء بين هذه الوحدات.

ومخاطب القومية ليست البشرية كلها، وانما «الوحدات القومية» ثم ان الهدف النهائي ليس إقامة مجتمع عالمي، وانما مجتمعات قومية (National states)، على العكس من الاسلام الذي يخاطب البشرية جمعاء، فهو يعتبر البشرية «وحدة» واحدة.

والنظام الذي يطرحه الاسلام لايتعلق بشعب معين أو عنصر او منطقة معينة او عصر خاص، وانما هو لجميع افراد البشر.

وكل من تقبل هذا النظام فانه يعتبر أخاً مساوياً للبقية و يتمتع بنفس الحقوق العبادية والواجبات السياسية والاجتماعية التي يحظى بها كل مسلم في حياته الاجتماعية. وهدف الاسلام هو إقامة «مجتمع توحيدي عالمي »

لاوجود فيه للحدود الجغرافية والعرقية واللغوية والحضارية، لأنه يرفض تقسيم البشر على اساس «الدم» و «التراب» الى وحدات قومية وعنصرية، كما وانه لايعطي للاختلافات «القومية» والعرقية أية أصالة، فمحك تقييم الافراد هو «التقوى» و «العقيدة» و «الايمان» و «العمل الصالح» والفـرد القومي الاتجاه يحصر تفكيره في مقولة «المصالح القومية» ولا ينظر إلاّ لمصالح قومه، ولتأمين وحفظ «الاهداف القومية»، ويضع قيوداً على الآخرين، لأن محك تحكيمه محصور في مقياسين، فاما ان يكون الانسان «قريبه ومن قومه»، واما ان يكون «اجنبياً وغريباً عنه»، فيتعامل مع هذا بشكل ومع ذاك بشكل آخر، وبذلك يتعرض الحق والانصاف في هذا المجال الى غدر واجحاف، لان كل من لاصلة له بالقوم لايسمح له بالمساهمة والمشاركة في أيٍّ من الشؤون.

أما الاسلام فانه يفكر في المقولات العالمية عارضاً دعوته على جميع البشر، ورافضاً «النظرة الضيّقة» المحدودة في اطار القوم والعرق والقبيلة، وناظراً إلى البشرية بعين واحدة ومحدداً ملاكه في «التقوى» و «العمل الصالح»، وله رسالة عالمية لارسالة قومية، ومقرراً علاقات حرة بين أبناء البشر لان انتشار الرسالة السماوية وحضارتها ومعنوياتها مرهونه بتلك الاسس.

والاسلام ينشد للانسان السمو والتكامل ويرفض الأنانية والولاء القومي.

وفي حين تدعو القومية الى تنمية الاخلاق القومية وتحفز الافراد لخدمة مجتمعهم، حتى لو كلفهم هذا الامر سحق مصالح الشعوب الاخرى. نجد الاسلام يدعو الى الاخلاق الانسانية والاخذ بنظر الاعتبار المصالح البشرية، وحتى «الايثار» في هذا السبيل.

باختصار، فان الاسلام رسالة عالمية تتخطى الآفاق «الوطنية» و «القومية» المحدودة.

والقرآن يؤكد بشكل خاص على وحدة البشرية في العالم:

«يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالاً كثيراً ونساءا» (النساء: ١)

و يعيد للاذهان بأن اختلاف الحدود الجغرافية ومواطن نشوء افراد البشر لا تشكل أمراً أساسياً، ولا تستطيع ان تجزِّئ الوحدة البشرية الى «وحدات محدودة»

«وهو الذي أنشأكم من نفسٍ واحدةٍ فمستقر ومستودع»

(الانعام: ٩٨)

وليس لاختلاف العناصر والقبائل والشعوب أية اصالة حقوقية كما انها ليست اساسا للوحدة ولا معياراً للافضلية بل هي عوامل للروابط الانسانية والتعارف:

«يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثىٰ وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، ان اكرمكم عندالله اتقاكم».

(الحجرات: ١٣)

اي ان وجود الشعوب والقبائل هو من اجل تسهيل تنظيم الامور والتعارف وان الملاك الوحيد هو «التقوىٰ».

والقرآن الكريم يعتبر تجزئة افراد البشر الى وحدات سياسية وقومية، عذاباً إلهياً يؤدي الى تحطيم البشرية

«او يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض».

(الانعام: ٦٥)

وإن ابعاد وفصل افراد البشر عن بعضهم لايقلان شأناً عن جرائم فرعون التي يستنكرها القرآن.

«ان فرعون علا في الارض وجعل اهلها شيعاً».

(القصص: ٤)

ولو تفحصنا القرآن فلن نجد حتى آية واحدة تعكس أصالة القومية او الفصل بين افراد البشر على اساس «الدم» و «التراب».

والقرآن يدعو جميع افراد البشر الى الخير والسعادة لا الى الامتيازات القومية والعرقية كما رأينا.

والنبي الاكرم(ص) اكد مراراً على ان الناس متساوون وليس للوطن اوالعرق فضل يذكر.

«لافضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي، الا بالتقوى، كلكم لآدم وآدم من تراب».

والبشرية وحدة واحدة، والملاك هو «الدين» و «التقوىٰ»:

«ليس لاحد فضل على احد إلاّبدين وتقوىٰ، الناس كلهم بنوآدم، وآدم من تراب».

و في حديث نَبَويّ آخر:

«لافضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لابيض على اسود ولا لأسود على أبيض إلاّ بالتقوىٰ».

و بعد فتح مكة وفي اول خطاب عام، خاطب النبي، قريشاً قائلا:

«ايها الناس كلكم من آدم وآدم من تراب، لافخر لانساب، لافخر لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي. ان اكرمكم عندالله اتقاكم»

وبهذا اعلن الرسول(ص) بكل صراحة، أنه لايمكن لعلائق الدم ان تكون مصدراً للفخر، لان الملاك محصور في «العقيدة» لاغير. وكان النبي(ص) ايضاً يؤكد دائماً على وحدة البشرية مستنكراً تجزئتهم الى وحدات عرقيه وقومية محدودة، فلقد جاء في الاحاديث, والاخبار المنقولة ان الرسول الأكرم (ص) كان يقرأ الشهادتين بعد كل صلاة و يقول «اشهد ان العباد كلهم اخوة».

القومية ام الاممية؟:

للمسلمين طبقاً لدستور القرآن، رسالة عالمية، و يسعى الاسلام لتأسيس مجتمع يدعو البشرية كلها للانضواء تحت لواء واحد:

«كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر»
(آل عمران: ١١٠)

«وكذلك جعلناكم امة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس»

ولم تكن رسالة بين الاسلام رسالة وطنية أوقومية كانبياء بني اسرائيل، و انما رسالة عالمية:

«وما أرسلناك الا كافةً للناس بشيراً ونذيراً»

(سبأ: ٢٨)

«قل يا أيها الناس إني رسول الله، اليكم جميعاً»

(الاعراف: ١٥٨)

«يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً و مبشراً ونذيراً وداعياً الى الله بإذنه وسراجاً منيراً»

(الاحزاب: ٤٥)

«هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله».

(التوبة: ٣٣)

ولما كانت رسالة النبي رسالة عالمية لا قومية، ففي السنة السادسة للهجرة بعث النبي(ص) الرسائل الى هرقل ملك الروم وكسرىٰ ملك ايران والنجاشي ملك الحبشه والى حاكم مصر، يدعوهم للدخول في الاسلام:

«وما أرسلناك الا رحمة للعالمين».

(الانبياء: ١٠٧)

«وما هو إلا ذكر للعالمين»

(القلم: ٥٢)

«تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا»

(الفرقان: ١)

وإنَّ اعتقاد الشيعة بحكومة المهدي عجل الله تعالىٰ فرجه الشريف، يعكس تلك الأممية الاسلامية. فعندما يظهر منجي البشرية تتحقق الحكومة العالمية الواحدة تحت لواء الاسلام وبقيادة امام إصطفاه الله ليوحد البشر و ينشر العدل والسلام في المعمورة.

وبهذا نلاحظ ان الاسلام بهدفه ورسالته ومهمته وتصوره على قطب نقيض «للقومية» تماماً.

٢ــ ما هو المحور الرئيسي للوفاء؛ «الله» أم «الوطن»؟:

إنَّ القومية تعتبر «الوطن» محوراً رئيسياً للوفاء، بينما الاسلام يرىٰ ان «الله» و «دين الله» هما محور الوفاء والتعلق الانساني.

إنِ الحكم إلاّ لِلّهِ أمَرَ أن لا تعبدوا إلاّ إيّاه»

(يوسف: ٤٠)

والشعور العميق والتعلق بـ «الوطن» والوفاء المطلق له، هو أساس القومية، بينما الايمان الراسخ والاعتماد على الله هما الركنان الاساسيان في الاسلام.

«إياك نعبد واياك نستعين»

(الفاتحة: ٣)

والقومية تريد من الانسان ان يهتم و يتعلق «بالوطن» بدرجة كبيرة بل اكثر من اهتمامه بالله سبحانه وتعالى، وهذا النهج شرك. لان المحور الرئيس للحب والعبادة والوفاء هو الله لاغير وكل محور أو معيار آخر ليس إلاّ «صنماً» وطاغوتاً. ربما لايتنبه القوميون الى «شركهم» معتبرين أنفسهم «عباد الله» لكن اعتبارهم أصالة الوطن و «القومية» تجاه الله ودينه ليس إلاّ الرجوع الى «الطاغوت».

«ألَم ترَ إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أُنزِلَ إليكوما أُنزِلَ من قبلك يريدون ان يتحاكموا الى الطاغوت وقد أُمِروا أن يكفروا به و يريد الشيطان ان يضلهم ضلالاً بعيداً»

(النساء: ٦٠)

والقومية تعتقد بان الوفاء «للوطن» يجب ان يسبق أي شيء آخر، حتى التعلق «بالدين» و «العقيدة» و «الله»،وفي اي تعامل بين المشاعر

الوطنية والمشاعر الدينية يجب على القومي إعطاء الأسبقية للوطن؛ بينما يؤكد الإسلام على ان يكون كل الوفاء والتعلق ضمن الوفاء لله.

«ففروا الى الله إني لكم منه نذير مبين ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر إني لكم منه نذير مبين...»

(الذاريات: ٥٠ — ٥١)

والقومية تعتقد بأن ذروة واصالة الشعور القومي والتعلق هي عندما لايخل به اي شعور آخر بما فيه الدين والله.

بينما الاسلام على عكس ذلك فالايمان بالله يكون حقيقياً عندما لا يخل به اي شعور آخر بما فيه الشعور «الوطني» والشعور «القومي».

وتؤكد القومية على التعصب تجاه «الوطن» بينما الاسلام يطالب الانسان «الموحّد» بالتمسك بالله وحده. ولو حصل تعارض بين الأوامر الالهية وحب الوطن وفضل الانسان «الوطن» فقد خالف الروح التوحيدية والنص الصريح للاسلام:

«لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق»

والقومي يحيا ويموت من اجل «الوطن»، بينما يحيا الانسان الموحد ويموت من اجل الله وحده:

«ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين»

(الانعام: ١٦٢)

وتكون «المصالح القومية والوطنية» في المذهب القومي هي المحرك والمحدد لجميع المواقف والقرارت الفردية والجماعية، اما الحد الفاصل في الاسلام فهو التمسك بالله والاحكام الالهية التي تقرر جميع المواقف الفردية والجماعية.

«الحب في الله والبغض في الله»

وأخيراً فان السيادة في القومية هي للشعب وهي الملاك للمصالح القومية والوطنية، بينما الحكم في الاسلام هو لله وحده ولشريعته النافذة

لا لشيء آخر:

«ان الحكم إلاّ لله»

(يوسف: ٤٠، ٦٧) و (الانعام: ٥٧)

«فالحكم للهِ العليِّ الكبير»

(غافر: ١٢)

«له الحكم واليه ترجعون»

(القصص: ٨٨)

«ألا لَهُ الحكم وهو أسرع الحاسبين»

(الانعام: ٦٢)

والقرآن الكريم يرفض أية أصالة قومية ووطنية، تحتل مكان الأحكام الإلهية.

«أفحكم الجاهلية يبغون ومن احسن من الله حكماً».

(المائدة: ٥٠)

أمّا في الاسلام فان الحكم لله ولشريعته السمحاء، و «الشعب» في طار الشريعة السمحاء يتسلم الامور «خلافة لله في الارض»، ولكنه ليس بالمرجع النهائي بل الله هو المرجع المطلق.

«وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا»

(الحشر: ٧)

«واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم»

(الشورى: ١٥)

والنبي ايضاً كان يؤكد بقوة على ان محور الاخلاص والوفاء هو «الله» وحده، والحقيقة ان النبي كان يضرب بهذا اولئك الذين يؤكدون على «القومية»:

«يا قوم اعبدوا الله مالكم من إلَهٍ غيره»

(الأعراف: ٥٩)

لكن القومية بعرضها للآلهة الجديدة، اصطدمت بركن اساسي في الاسلام هو «التوحيد» مما ادى بها الى الوقوع في «الشرك الخفي».

الاسلام وسيلة أم غاية؟:

ومن خلال اجراء دراسة وتحقيق لافكار وسلوك من يسمون«بالقوميين المتدينين»، الذين يتحدثون عن القومية والدين الاسلامي في آن واحد، نستخلص بان هدفهم الاصلي هو القومية او الليبرالية، وان الاسلام ليس الا وسيلةً لديهم. فبدلاً من الاخذ بنظر الإعتبار«الاسلام»و «الدين» وتعظيمهما في سبيل الله، فانهم يتخذونهما وسيلة للوصول الى الاهداف الوطنية، فهما ليسا هدفاً وانما وسيلة. وهذا التفكير أوالتصور يعتبر بحد ذاته نوعاً من «الشرك».

انهم يفكرون باستخدام اسم الاسلام لاثارة احاسيس الجماهير ضد الاجانب للحصول على الهدف النهائي «المتمثل»«بالاستقلال» لا لإقامة نظام اسلامي. وقدتمكنوا من القضاء على الاستبداد وطرد الاستعمار باسم الاسلام، ليوجهوا بعد ذلك حراب اضطهادهم نحو انصار النظام الاسلامي الحقيقيّين.

واستناداً الى عقيدة الاسلام فان الهدف النهائي يجب ان يكون «الله» لا الاستقلال والحرية، وان حبّنا للاستقلال والحرية يجب ان يكون في سبيل الله والتعاليم الاسلامية وإلا فانه سيكون شركاً.

ولوتصفحنا كتابات القوميين الذين يتحدثون عن الاسلام لوجدنا ان كعبتهم هي «الاستقلال» او «الحرية» او «الوطن»، وان الاسلام ليس الا وسيله مجندة للوصول الى الهدف، علما بأن «المسلم الاصيل» هو الآخر يحب «الاستقلال» و «الحرية» و يدافع عنهما أشد دفاع ولكن في سبيل الله والاسلام.

٣– ماهو عامل الوحدة: العقيدة أم القومية؟

استناداً الى المذهب القومي، فان التعايش الجماعي الخاص، على ارض معينة هو العامل المكون «للقومية» و «الوحدة»، وان العيش في محيط

طبيعي وجغرافي مشترك، او الاشتراك في العرق واللغة والتأريخ او الطبيعة السياسية، هو المكون للتلاحم والتضامن القومي بين الافراد. وعلى هذا الاساس يتحسس الافراد المصلحة المشتركة، وعلى هذا الاساس ايضاً تقام العلاقات وتقطع، و يقسم الناس الى شعوب وقبائل.

بينما الاسلام على عكس ذلك، فـ «العقيدة» و «الرسالة» هما الاساس واعظم رابطة بين الافراد، وهما أيضاً الملاك والمحك في تقييم تعلق وانفصام الافراد.

وكذلك فكل من لايعتنق الاسلام يعتبر «غريباً» حتىٰ وان كان مواطناً وتابعاً لبلداسلامي بل وان كان أخاً أو أباً أو ابناً، وكل من اعتنق الاسلام وان كان في اقاصي نقاط العالم فانه يعتبر «قريباً» ومن نفس العائلة.

فالنبي محمد (ص) عربي هاشمي، لكنه يعتبر سلمان الفارسي منه، بقوله «سلمان منا أهل البيت» و يصبح بلال الحبشي وصهيب الرومي من اركان الدولة الاسلامية في الجزيرة العربية، بينما يطرد من هذا المجتمع الجديد، ابولهب وابوجهل وابوسفيان وهم من صلب العرب،و يعتبرون «غرباء» بالرغم من تبعيتهم القبلية والعرقية والقومية.

ان التصور الاسلامي «للقومية» يختلف و يتعارض مع التصور القومي، لان فقرات الهيكل الاسلامي تقوم على اساس «الدين» لا العوامل المادية.

و «الامة الاسلامية» هي حزب الله والنبي وان شرط الانتماء اليها يقوم على اساس وحدة العقيدة والتصور الكوني. والاسلام يرفض أية قيود «مادية» مهما كانت، وأي ولاء وتبعيّة فيه إنما تقوم على اساس الأصول العقائدية والفكرية.

فالمسلم التركي والفارسي والعربي والهندي يشكلون امة واحدة، لان الدين هو الاساس في الولاء، والتبعية للاسلام. والاجنبي هو من افتقد الميزة الاسلامية حتى وان كان اقرب المقربين، فالايمان والعقيدة هما الحدود لا

الحدود البشرية المصطنعة.

اما اللون والدم والتراب فهي من المظاهر الطبيعية وولیدةالمعاهدات البشرية المختلفة. ولا يمكن لها ان تكون «الملاك».

ومادام العربي والفارسي والهندي، مسلمين حقيقيين فهم سواسية بنظر الاسلام، وعلى هذا الاساس يتكون الوطن الاسلامي ليشمل جميع الأمة الإسلامية. فالمسلمون من طنجة الى الفليبين يكونون على هذا الاساس «شعباً» واحداً،وماالمؤتمرالعالمي للحج إلا مظهر لهذه الوحدة العقائدية بين المسلمين.

اما «هجرة» النبي فهي الأخرىٰ نموذج للانسلاخ من التبعية الجغرافية والاتجاه نحو التبعية العقائدية.

* * *

وفي الاسلام تكون العقيدة هي الملاك في تحديد افراد الأمة والاجانب، لا القومية او علائق الدم.

«انا انزلنا اليكالكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله»

(النساء: ١٠٥)

وتؤكد النصوص الاسلامية على هذه النقطة بدرجة كبيرة بحيث لوطالعناتاريخ صدر الاسلام ومعاملة وسلوك النبي والأئمة لما وجدنا مجالاً للشك والترديد في ذلكومن هنا ينفصل سبيل الاسلام عن سبيل القومية لان اسس المذهبين متباينة و متناقضة.

وكما قلنا فالاسلام يعتبر العقيدة هي الملاك و ينفي أيَّ ملاكآخر، بينما يعتمد الفكر القومي على التراب والدم واللغة كملاكات للتبعية والولاء.

«واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا»

(آل عمران: ١٠٣)

«إنما المؤمنون اخوة»

(الحجرات: ١٠)

«إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون»
(الانبياء: ٩٢)

والنبي ايضاً عَرَّفَ «الامة الاسلامية» كوحدة وكيان واحد.

«مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد اذا اشتكىٰ منه عضو تداعىٰ له سائر الجسد بالسهرو الحمىٰ»

وافراد هذه الامة يرفضون الحدود المصطنعة وعلائق الدم والتراب و يكفرون بها ولايؤمنون الاّبالله وهم اعضاء في عائلة عقائدية واحدة وهم سواسية في الحقوق والواجبات.

اما اولئك الذين يقومون بتجزئة «الامة العقائدية» باسم «القومية» والعرق واللغة فانهم في الواقع يريدون تجزئة وحدة الصف الاسلامي، ليرجعوا الى الجاهلية كمايصفهم النبي الاكرم «ص» **«من فارق الجماعة مات ميتة جاهلية».**

واستخدمت كلمة «العصبية» في الاسلام لكل ولاء، للارض والدم واللغة والاجداد، عدا «العقيدة» او الرسالة.

والنبي اعلن بأن كل من لايؤمن «بالعقيدة» و «بالله» وحارب من اجل شيء آخر فقد انقطع عن الاسلام ورجع الى الجاهلية:

«من قاتل تحت راية العصبية، يغضب لعصبية اويدعوالى عصبية اوينفر لعصبية فقُتل، فقتلة جاهلية»

وفي القرآن يقول الله عزوجل عن الكافرين.

«فان تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم في الدين»
(التوبه: ١١)

و ينقل ابوداود في كتاب «الجهاد» عن النبي(ص) قوله:

«إن الله أمرني بان اقاتل الكفار لكي يعترفوا بوحدانية الله، ويتّجهوا نحو القبلة، ويسيروا على خطانا في الصلاة والصوم، فاذا اعتنقوا ديننا فسيتمتعون مثل بقية المسلمين بكافة الحقوق والواجبات*»

---

* النقل بالمعنىٰ.

ان حدود الامة الواقعية يحددها الدين والعقيدة، فمن كان في اطار الدين فهو اخ مسلم، ومن كان خارجه فهو اجنبي، على هذا الاساس تتخذ القرارت والمواقف الودية والعدائية:

«محمد رسول الله والذين معه اشداء على الكفار رحماء بينهم»

(الفتح: ٢٩)

«قد كانت لكم اسوة حسنة في ابراهيم والذين معه، اذ قالوا لقومهم انا برءاؤ منكم ومما تعبدون من دون الله، كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء ابداً حتىٰ تؤمنوا بالله وحده».

(الممتحنة ٤)

وفي المذهب القومي يعتبر جميع المواطنين —الكافر والمسلم— اخوة وسواسية! اما الاسلام فإنه يرفض ذلك ولايعتبر الشخص —الذي لايمت بأية صلة الى المسلمين من الناحية العقائدية والرسالية— من المسلمين حتىٰ وان كان من المواطنين.

«يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا ابطانة من دونكم»

(آل عمران: ١١٨)

والقومية كما قلنا تهتم بأبناء الوطن فقط، معتبرة الشعوب الأخرى غرباء وأجانب حتىٰ وان كانوا مسلمين. وهذا يتعارض مع النص الصريح للقرآن.

«يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم اولياء»

(الممتحنة: ١)

إن جميع العلاقات والروابط بما فيها العلاقات العائلية تخضع لعوامل العقيدة؛ فالمؤمن بالعقيدة هو أخ لنا، والمخالف للعقيدة هو غريب عنا حتى وإن كان أخاً أو أباً.

«لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء ان استحبوا الكفر على الايمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون».

(التوبة: ٢٣)

«ان من ازواجكم واولادكم عدواً لكم فاحذروهم»

(التغابن: ١٤)

«لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم او ابناءهم او اخوانهم او عشيرتهم، أولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جناب تجري من تحتها الانهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه، أولئك حزب الله الا ان حزب الله هم المفلحون».

(المجادلة: ٢٣)

وهذه الآيات تقطع أية جذور للاسس القومية لانها تعلن بصراحة ان «العقيدة» في الاسلام هي الاساس في اي تعلق وعصبية وقومية وهي التي توجه الانسان نحو اتخاذ الموقف المناسب والصحيح وليس لمفهوم المواطنة والعرقية اية اصالة مقابل رابطة العقيدة والدين، فني الاسلام لامكان للقومية الفارسية والتركية والعربية، بل هناك أمة واحدة تتمثل بـ «حزب الله» لاغير.

وهذا الاصل انعكس في النظام الفقهي الاسلامي ايضاً فغير المسلم لايرث المسلم وان كان ابنه.

يقول الحديث الشريف:

«لايتوارث أهل ملتين».

والاختلاف في العقيدة يقطع الرابطة الزوجية، فأيٌّ من الزوجين ارتد عن الاسلام اصبح حراماً على الآخر. والنص القرآني يقول:

«لاهُنّ حِلٌّ لهم ولاهم يحلون لهن».

(الممتحنة: ١٠)

والمجتمع الذي اقامه النبي في المدينة كان اساسه «العقيدة» ورفضت فيه جميع علائق الدم والتراب والعرق والولاء للقبيلة. والواقع ان ذلك المجتمع كان يسير في جهة معاكسة للمبادئ القومية.

وفي معارك بدر وأحد والخندق وقف النبي الى جانب الانصار في

المدينة—وهم طبقاً لاسس القومية غرباء واجانب —وحارب قومه من أجل «الدين» و «العقيدة»، وحذيفة حمل على ابيه، وابو بكر رفع السيف على ولده عبدالرحمن، وتم أسر العباس بن عبدالمطلب عم النبي، وعقيل ابن عم النبي وأبي العاص، حتىٰ ان عمر اقترح قتل كل من ثبت ذنبه ولم يستسلم للحق، وان يقتل كل مسلم قريبه من الكفار الاسرىٰ، وقد قتل عمر خاله في الحرب.

لذلك نلاحظ كيف تتهشم وتتقطع اواصر القرابة والاواصر العرقية والقبلية امام «العقيدة».

وفي فتح مكة نجد النبي (ص) يهاجم «وطنه» بمساعدة جيش الانصار —الاجانب والغرباء— و يقتل بسيوف الآخرين، اقرباءه وأهل مدينته وهذا مالم يسبق له مثيل عند العرب آنذاك، لكن هذا هو الاسلام الذي استطاع ان يجعل «الغريب» قريباً و «القريب» غريباً.

وفي معركة بني المصطلق، حصل شجار بين أحد افراد قبيلة بني عون، وآخر من بني غفار، فصفع الغفاري، العوني. وكان بنوعون من «الانصار» في المدينة و بنو غفار من «المهاجرين» في مكة. فاستصرخ العوني «الأنصار» لنجدته بدافع الولاء السياسي والقومي، وفعل الغفاري نفس العمل طالباً نجدة المهاجرين، وكادت السيوف تأخذ بالمهاجرين والانصار، لولا أن النبي صرخ فيهم قائلاً: «**مالكم ولدعوة الجاهلية**».

في هذه الغزوة عندما سمع عبدالله بن ابي هذا القضية (وكان من قوميّي المدينة ومن قادة المنافقين) قال:

«اننا استقبلنا هؤلاء الاجانب في أرضنا لكنهم اليوم و بعد ان اصبحوا أقوياء بدأوا يهاجموننا. انهم اشبه بالكلاب الجائعة أتيتم بها الى بيوتكم فأطعمتموها حتى اذا سمنت وقويت اعتدت عليكم. والله لوعدنا الى المدينة فان الأشراف —أي اهل المدينة— سيطردونهم— اي الرسول العظيم والمهاجرين—!*».

---

* النقل بالمعنىٰ.

ثم قال ناصحاً ابناء وطنه:

«يالحماقتكم في اشراك هؤلاء بوطنكم ومالكم وابنائكم! اقسم بالله انكم لو تخليتم عنهم فسوف لن يستطيعوا البقاء لحظة واحدة*».

وعندما وصل خبر حديث هذا الرجل «القومي» الى مسامع النبي(ص) استدعىٰ عبدالله نجل عبدالله بن ابي وقال له «سمعت ان اياك تحدث هكذا». وبالرغم من حب و علاقة عبدالله بابيه وفخره به: قال دون تردد «يا رسول الله ان امرت لقطعت رأسه ورميته امام قدميك» لكن النبي(ص) منعه من ذلك وعندما وصل المجاهدون الى المدينة وقف عبدالله النجل امام ابيه رافعاً السيف بوجهه وصارخاً:

«مالم يسمح النبي فلن تستطيع ان تدخل المدينة او تطأها قدمك، ولنَر الآن كيف يقوم الأشراف باخراج غير الأشراف*»

هذه هي اسس «القومية الاسلامية» وبهذه الصورة يتكون «شعب عباد الله».

وعندما تمردت قبيلة بني قينقاع اليهودية —التي كانت تسكن ضواحي المدينة— على المسلمين ثم قمع تمردهم، امر النبي عبادة بن الصامت ان يحكم في امرهم، ومع ان عبادة كان من قبيلة الخزرج المتحالفة مع بني قينقاع، لكنه دون ادنىٰ تردد، امر بابعاد جميع افراد هذه القبيلة من المدينة.

و بعد خيانة بني قريضة (التي كانت متحالفة مع قبيلة «الاوس»)، امر النبي، سعدبن معاذ وهو رئيس قبيلة الاوس للنظرفي تلك الخيانة، فحكم سعد على جميع رجال بني قريضة بالاعدام لجرمهم الكبير.

هذه الادلة القاطعة، توضح بجلاءان الحكم في المجتمع هو «للعقيدة» و «الرسالة» لاغير، وليس للولاء القبلي والوطني والعرقي واللغوي أي تأثير على تكوين «الامة الاسلامية».

---

* النقل بالمعنىٰ.

* النقل بالمعنىٰ.

والقومية في طرحها لأسس «التراب» و «الدم» ورفضها «للقومية على اساس العقيدة» فانها في الحقيقة تعلن رفضها للقرآن والدين الاسلامي.

٤ــ التعلق «بالتراب» من منظور إسلامي:

إنَّ الاصالة في القومية هي «للارض» و «الوطن» بينما الاسلام يعطي الاصالة «لخالق الارض والوطن» وترىٰ ملكية الارض للشعب الذي يعيش عليها لاللآخرين، و يلزم بالدفاع عنها الى حد التضحية للحفاظ عليها، إذن فهي تبني بهذا التصور حدوداً جغرافية بين الشعوب للفصل بينها.

لكن الاسلام لايعطي ملكية الارض لهذا وذاك، وانما الارض لله وحده، والبشر هم خلفاؤه عليها، ولهم الحق ــ خاصة الذين يؤدون مسؤوليات الخلافة الالهية و يؤمنون برسالته ــ اكثر من غيرهم لادارتها. اما الحدود فهي حدود عقائدية وليس للارض مقابل العقيدة أية أصالة أو قيمة.

والآيات القرآنية تؤكد على الملاحظات الآنفة:

«قل اللهم مالك الملك»

(آل عمران: ٢٦)

«قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون، سيقولون لله، قل افلا تذكرون»

(المؤمنون: ٨٤ ــ ٨٥)

«قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولايجار عليه، إن كنتم تعلمون، سيقولون لله قل فانىٰ تسحرون»

(المؤمنون ٨٧ ــ ٨٨)

«وما من إلٰه الا الله الواحد القهار، رب السماوات والارض»

(ص: ٦٥ ــ ٦٦)

وبما ان مالك الكون هو الله، وهو الذي جعل «الانسان» خليفته عليها، فان الارض لجميع البشر خاصة «لحزب الله» وللانسان حق الخلافة الالهية في

الارض:

«هو الذي جعلكم خلائف الارض».

(الأنعام: ١٦٥)

«اني جاعل في الارض خليفة»

(البقرة: ٣٠)

اما موارد و ثروات الارض فهي للبشر جميعاً لان الله سخر الارض «للانسان» وليس لأقوام وشعوب خاصة.

«ألم ترأنَّ الله سخر لكم مافي الارض جميعاً»

(الحج: ٦٥)

ولايجوز للانسان ان يقيد نفسه في حدود جغرافية، وعليه ان يعتبر الأرض كلها مسخرة من الخالق له:

«ألم تكن ارض الله واسعة فتها جروا فيها»

(النساء: ٩٧)

«ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الارض مراغماً كثيراً وسعة»

(النساء: ١٠٠)

وجميع الارض هي لعباد الله الصالحين:

«ان الارض يرثها عبادي الصالحون»

(الانبياء: ١٠٥)

«وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض»

(النور: ٥٥)

هذا المبدأ الالهي الاسلامي، يؤدي بالمسلم الحقيقي ان لايحصر تفكيرة في إطار مقولات القومية والتعلق بالتراب، وانما يجعله يفكر بان الارض كلها لله ولعباده:

(كلُّ مُلك مُلكنا وهو ملك ربنا)

«الشاعر إقبال لاهوري»

وفي القرآن يدور الحديث عن كل من يوجد على الارض، لا عن العرب والعجم او المدينة ومكة، واذا كان للاسلام والمسلمين تعلق وولاء لارض خاصة فهي «مكة»، و بالرغم من كل ذلك جاء في القرآن بصراحة عن هذه «المدينة المقدسة»:

«جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد»

(الحج: ٢٥)

ولهذا السبب يؤكد اكثر الفقهاء، ان ارض مكة هي للمسلمين جميعاً وليس لأحد الحق في امتلاكها. و ينقل عن التأريخ ان عمر منع اهل مكة من اغلاق ابواب بيوتهم لكي يتمكن الزوار من دخول اي بيت شاءوا، وكذلك فان عمر بن عبدالعزيز منع اهل مكة من اخذ الاجور من الحجاج لان الملك، ملك جميع المسلمين. و يقول البعض الآخر من الفقهاء ان الذي يبني بيتاً برأس مال منه في مكه يحق له اخذ الأجرة عن البناء فقط لكن الارض والفسحة والبستان و بقية المتعلقات الاخرىٰ هي للجميع.

ونقل عن النبي(ص):

«مكة حرام لايحل بيع رباعها ولا تأجير بيوتها»

ونقل أيضاً **«انما هي مناخ من سبق»**

والقرآن يأمر المسلمين بطرد المشركين من ارض مكة لانهم غير مطهرين:

«انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا»

(التوبة: ٢٨)

والحقيقة ان ذلك يعكس التصور الاسلامي المتميز، بأن الولاء والتبعية غير مرتبطين بالتوالد والتناسل وانما بالعقيدة، وهذه هي ضربة تهدصرح الفكر القومي المتهاوي.

* * *

أصل الهجرة:

رمز الانتزاع من «الارض» والمضيّ نحو «العقيدة»:

الاسلام – خلافاً للقومية – يعلم الانسان عدم التعلق بالارض والتمسك بالعقيدة. وإن استلزم الامر تركه البيت والوطن والارض.

فالهجرة هي من اصول الاسلام الاساسية وهي في مستوىٰ «الجهاد».

والحقيقة ان الهجرة وترك المال والبيت والوطن هي من اجل العقيدة والرسالة، وقد هاجر اغلب الأنبياء من مواطنهم.

وهجرة رسول الاسلام العظيم اصبحت تقويماً اسلامياً ومقدمةً لبدء التأريخ الاسلامي.

وفي المجتمع القومي تخضع العقيدة للتعلق «بالتراب» والوطن، بينما نجد في المجتمع الاسلامي ان الانسان يترك ارضه من اجل «العقيدة» معلناً بذلك عدم تمسكه بالأرض. فعندما تستوجب العقيدة أن يترك الانسان «موطنه» فانه يفعل ذلك و «الهجرة» في هذه الحالة ليست مسؤولية فحسب، بل ان عدم العمل بها يشكل ذنباً فردياً وجماعياً.

فتعلق الانسان بارض معينة وحصر نشاطه فيها، هو مفهوم اعتباطي وعبث في التصور الاسلامي. وان العيش في مجتمع قومي مغلق هو مرفوض في حالة تعرض الدين والعقيدة للخطر. واذا ادىٰ تعلق الانسان بالوطن الى التخلي عن الجهاد في سبيل العقيدة فانه عمل منافٍ للاسلام ومرفوض اساساً.

«ان الذين توفيٰهم الملائكة ظالمي انفسهم قالوا فيما كنتم قالوا كنا مستضعفين في الارض. قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا»

«النساء: ٩٧»

و يؤكد القرآن بقوله:

«ألم تكن أرض الله واسعة؟» ان الحدود القومية والوطنية ليست لها اية اصالة، وعلى المسلمين من اجل الوصول الى الاهداف الاسلامية عدم

التوقف عند الحدود الجغرافية والقومية.

وفي هذا الصدد فإن الآية ٧٢ من سورة الانفال تحظى بأهمية كبيرة جداً، فهذه الآية لا تقيم وزناً للمسلم الذي يعتنق العقيدة و يتمسك مع ذلك بالارض «الوطن»

«الذين آمنوا ولم يهاجروا، مالكم من ولايتهم من شيء حتىٰ يهاجروا»

(الانفال: ٧٢)

فالهجرة في سبيل الله والتضحية بـ«الوطن»و «القومية» من اجل العقيدة هما بمنزلة الجهاد والجود بالنفس:

«ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله اولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم».

(البقرة: ١٨)

«الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وانفسهم اعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون»

(التوبة: ٢٠)

«ومن يخرج من بيته مهاجراً الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع اجره على الله»

(النساء: ١٠٠)

«فالذين هاجروا واخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لاكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الانهار ثواباً من عندالله والله عنده حسن الثواب»

(آل عمران: ١٩٥)

ان القيمة السامية: «للهجرة» في الاسلام هي تأكيد على نفي التعلق بالتراب، وان اصالة التعلق بالعقيدة والدين هي في القطب المقابل للتصور والاصول القومية.

ولقد اثبتت هجرة النبي(ص) وسلوكه، ان العقيدة هي المحور في

الاسلام ولا اهمية «للوطن». فبعد فتح مكة دب القلق بين بعض الانصار من استقرار النبي في مكة لكن المصطفىٰ محمد(ص) استدعىٰ الانصار معلناً لهم:

«ليس لي اي ارتباط بالعائلة والتراب، انني عبدالله ورسوله وهاجرت اليكم قربة لله وسأحيا واموت الى جانبكم*»

وعلى الرغم من زوال موجبات الهجرة لكن النبي غادر مكة (موطنه) بعد فتحها، ليثبت بعودته الى المدينة، عدم تعلقه «بالارض» و «الوطن»

٥ــ علائق «الدم» و«العنصر» من منظور اسلامي:

إنَّ احد اسس ومقومات القومية هو تعظيم «علائق الدم»،فالقومية تميل الى العنصرية، ولأجل تبيان وجوه الاشتراك والافتراق بين الاقوام تلجأ الى نظرية اصالة العنصر و «التوارث التأريخي» معتبرة «الدم» اساس الوحدة. وعلى نفس الاساس تعتبر «الجماعية الذاتية» افضل واكثر تفوقاً من الآخرين وكثيراً مانلمس انعكاس ذلك عند اثارة المشاعر والعواطف القومية والعنصرية المتطرفة. فاليونانيون القدماء كانوا يعتبرون كل من سواهم (من) افراد البشر «برابرة وهمجاً»، واليهود القدماء كانوا يحقرون غيرهم وذلك باطلاق كلمة «الاجنبي» عليهم، الى ان جاءت القومية الايطالية والالمانية المتطرفتين لتبيد اليهود، وماتزال القومية الامريكية تضطهد الزنوج لحد الآن.

لكن الاسلام يعارض هذا الأساس «القومي» و يكافحه، مؤكداً في نفس الوقت أنهم كلهم ــبدون استثناءــ يرجعون بالأصل الى آدم وحوّاء، خالقهم رب واحد، وليس لأحد افضلية على الآخر بسبب علائق الدم.

«يا ايها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة»

(النساء: ١)

والنبي (ص) يقول:

---

* النقل بالمعنىٰ.

«لافضل لعربي على عجمي ولالعجمي على عربي كلكم ابناء آدم».

«ليس لاحد فضل على احد الا بدين وتقوىٰ، الناس كلهم بنوآدم، وآدم من تراب».

«اسمعوا واطيعوا ولو استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة»

«لافخر لأنساب، لافخر للعربي على العجمي ولا للعجمي على العربي ان اكرمكم عندالله اتقاكم»

والاسلام لايعطي للون البدن اية افضلية او ملاك للتفوق، إلا لصبغة الله والعقيدة:

«صبغة الله ومن احسن من الله صبغة»

(البقرة: ١٣٨)

ونقل عن النبي (ص):

«لافضل لعربي على عجمي ولا للعجمي على العربي ولا لابيض على اسود ولا لاسود على ابيض الا بالتقوىٰ».

ولقد خاطب الرسول الاكرم (ص) بني هاشم قائلاً:

«يا بني هاشم لايجيئني الناس بالأعمال وتجيئونني بالأنساب»

اما امير المؤمنين على (ع) فيقول بصدد ازالة الامتيازات العرقية والقومية: «ان النبي ازال الاوهام الطبقية والعرقية وجعل الناس متساوين امام الاحكام المقدسة للقرآن*»

ونستطيع ان نفهم مدىٰ كفاح الاسلام ضد العنصرية والروح القبلية وذلك من خلال تنصيب النبي (ص)، لأسامة بن زيد العبد الحبشي على رأس جيشه ويخضع لاوامره قادة امثال عبيدالله بن الجراح وسائر رجال قريش والانصار، اوليس ذلك معناه ضرب الاسس العنصرية والعرقية عرض الحائط؟ فاضفاء الاصالة لعلائق الدم تقسم المجتمع الى مجاميع مختلفة، تتعرض الاقليات

---

* النقل بالمعنىٰ.

العرقية فيها الى التميز وهذا هونفس «الجرم» الذي لعن الله به فرعون:

«ان فرعون علا في الارض وجعل اهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم، يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ، انه كان من المفسدين»

(القصص: ٤)

وكذلك فان من مساوئ التأكيد على علائق الدم، هو قيام الشعوب الاخرىٰ بالتمسك بعرقها واجدادها وهذا مايؤدي الى الحيلولة دون قبولهم الحق والحقيقة، تقول الآية الكريمة:

«واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله، قالوا بل نتبعُ ما ألفينا عليه آباءنا، اولو كان آباؤهم لايعقلون شيئاً ولايهتدون»

(البقرة: ١٧٠)

وبعد مدة قصيرة من وفاة النبي، تمكنت الجاهلية من خلال الانقلاب الذي دبره بنو أمية من السيطرة على كل شيء، ناشرة بذلك مرض العرقية «علائق الدم» التي كانت الانموذج الاول للمذهب القومي الراهن، وحتىٰ برزت قريش في السقيفة على الانصار في مقولتها «الأئمة من قريش».

لكن اكثر علماء وقادة اهل السنة رفضوا هذا المنطق، إستناداً الى المنطق الاسلامي الذي يقول «لافضل لعربي على عجمي...»

٦ــ العصبية الجاهلية:

إن «القومية» تؤدي الى العصبية الشديدة وترى لنفسها التفوق وتنظر الى الآخرين باحتقار، ولا تفتخر الا بماضيها وأسلافها. لان «العصبية» تجبر الانسان على ان يحب ملكه وقومه فقط ولايحب الخير للآخرين او يقيم وزناً للشعوب الاخرى، معتبراً نفسه فقط «انساناً كاملاً» وغيره ناقصا!!

وقد اشرنا سابقا الى ان الاسلام قد عارض العصبية بشدة وأنَّ النبي(ص) حارب هذا النوع من التفكير، وحين سئل النبي عن معنىٰ «العصبية»، هل هي التعلق بالقوم؟ قال ما معناه «ان التعلق العادي بالقوم

ليس عصبية. العصبية هي ان يؤيد الانسان قومه سواء كانوا محقين ام مبطلين، مصيبين أو مخطئين، ومن يعمل ذلك فسيغضب الله. وبعد فتح مكة اعلن النبي(ص) في اول خطاب له قائلاً:

«يامعشر قريش ان الله اذهب عنكم نخوة الجاهلية وتَعَظُّمها بالآباء»

«الا كل مأثرة اودم او مال يُدّعَىٰ فهو تحت قدمي»

هذه «العصبية الجاهلية» تؤدي بالشعوب والاقوام الى الاحساس بالافضلية وتوجههم نحو «الانانية وحب الذات والتسلط»، وان تاريخ الدول القومية الغربية المتحضرة خلال القرن الاخير هو اكبر شاهد حي على العصبية الجاهلية في القرن العشرين.

فمن جهة يعلن الالماني بأنه من «الشعب الممتاز والمتفوق» ومن جهة اخرىٰ يعلن موسوليني «ان التعلق بايطاليا هو أسمى مذهب» والأمر يكان يَدَّعونَ «بان الولايات المتحدة هي ارض الله المختارة»، بينما الانجليز يتصورون «بان الله اعطى حق حكم العالم للشعب الانجليزي».

والقرآن يرفض بشدة هذا النوع من التفكير و يقول عن اليهود والنصارىٰ الذين اعتبروا انفسهم قوماً لا مجموعة دينية:

«وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هوداً او نصارىٰ، تلك امانيهم، قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين، بلىٰ من اسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولاخوف عليهم ولا هم يحزنون»

(البقرة: ١١١ — ١١٢)

وكذلك فان احدىٰ دلائل ونتائج «العصبية الجاهلية» الافتخار بالاسلاف، بينما يعتبر الرسول (ص) الافتخار بالاسلاف حالة ملوثة فهو يقول:

«لَيَدعَنَّ رجال فخرهم باقوام، انما هم فحم من فحم جهنم وليكونن اهون على الله من الجعلان التي تدفع بانفها النتن»

(سنن ابي داود الجلد الثاني ص ٦٢٤)

ونقل عن النبي في «الكافي»:

«ليس لأحد فضل على احد الابدين وتقوىٰ، الناس كلهم بنوآدم وآدم من تراب»

ان إحدى خصائص المذهب القومي المعاصر هي التفاخر بالتأريخ القديم، الذي يعتبره الاسلام جاهلية محضة.

فعلى سبيل المثال ان «القومية» تفتخر بالساسانيّين في حين يعتبرهم الاسلام من حملة راية القيم الجاهلية.

وهذه «العصبية الجاهلية» دفعت بقوميّي مصر، الى تمجيد فرعون، الملعون من قبل الله تعالىٰ.

٧ــ هل يستطيع الفرد ان يكون مسلماً وقومياً في نفس الوقت؟

ان «القومية» والاسلام هما مدرستان مستقلتان، لكل واحدة منهما اسلوبها الخاص واهدافها، وهما متناقضتان.

والانسان بطبعه وفطرته لايتعلق بسوىٰ «فكر» واحد، فقلب الانسان لايتّسع إلا لمحبوب واحد. والفكر الواقعي والاصيل الحاكم لحياة الانسان لايمكن ان يكون سوىٰ المحفز الواحد في جميع سلوكه واقواله الفردية والاجتماعية. واذا كان هناك من يعتقد بوجود عقيدتين فلا محال ان تكون واحدة منهما حية وفعالة والاخرىٰ جامدة لاحول لها ولاقوة.

فلا يمكن للقومي الألماني ان يكون مسيحياً حقيقياً وقومياً عنيفاً، لان الفكر الحي والفاعل عنده هو القومية، ولايمكن للمسيحية ان تكون سوىٰ عقيدة اضافية وميتة ليست لها السيادة في سلوكه.

وكذلك لايمكن ان يكون الايطالي «فاشياً» ملتزماً ومسيحياً حقيقياً. فاذا كانت الفاشية هي الحاكمة على سلوكه والمحددة لاهدافه وطموحاته، فان المسيحية تصبح كاصبع سادس في اليد لا ترجىٰ منه أية فائدة.

الاسلام له مُثُلٌ واهداف خاصة، والقومية كذلك لها مُثلٌ خاصة، وهنا لايمكن اطلاقاً للانسان ان يعتنق عقيدتين حَيَّتين وحقيقيتين في آن واحد،

اللهم إلا اذا كانتا واحدة وآنذاك لايمكن تسمية كل منهما باسم خاص وان نقول هذه العقيدة «اساسية» والاخرىٰ «ثانوية»، وتكون العقيدة في هذه الحالة ايضاً هي الحاكم الوحيد على سلوك الانسان.

ومن الممكن ان تقضي مصلحة الانسان بان يخفي عقيدته الحقيقية او ان لايعلم و يعي بان الهدف الفاعل. والحاكم على تصوره وطبعه او علاقته، يكمن في «الوطن» او «الديمقراطية» او «الحرية»، لافي ارتباطه بالله والاسلام.

ومن الممكن ان يعتبر مثل هذا الانسان نفسه مسلماً حقيقياً. والواقع انه لايعتنق سوىٰ عقيدة واحدة لاغير، لان المحفز الواقعي والموجّه لطاقاته وسلوكه هو واحد، إذ انه لايمكن ان يمتلك الفرد عقيدتين في آن واحد. والذي يظن بانه لايؤمن بأية عقيدةٍ او له اكثر من عقيدة واحدة: فلو طلب منه ان يترك عقائده الواحدة تلو الاخرىٰ فانه في النهاية سيصل الى حد لايستطيع التخلي عن احدىٰ عقائده اوافكاره، لانه يعتبرها جزءاً من وجوده وكيانه بل و يستعد للتضحية من اجلها، وهذه هي الفكرة اوالعقيدة المثالية والحقيقية لذلك الفرد.

والآن لننظر هل يضحي هذا الانسان بنفسه من اجل الاسلام ام «الحرية»؟ ام من اجل «الديمقراطية»؟ ام من اجل الشيوعية والقومية؟ من أجل من يضحي ؟

ان الانسان لايؤمن الا بعقيدة واحدة وهدف واحد و«آلهٍ» واحد، اما ادعاؤه العلاقة والوفاء لبقية الاهداف، فذلك لايتعدىٰ الخيال والوهم، وإن كان لايعي ذلك او يعيه. والواقع ان التعلق «بالهدف والعقيدة» هو الذي يعين جميع التصرفات والسياسات والخطوط التي يتخذها الانسان، بينما تخضع جميع التعلقات بالاهداف الثانوية الاخرىٰ لظل شعاع «الفكرة» الرئيسية.

و يتصور بعض القوميين انهم يستطيعون ان يكونوا قوميين ومسلمين في نفس الوقت اي يمكنهم اعتناق مذهبين، والطهطاوي ومصطفى كمال في مصر، ونامق كمال في زمرة الذين يجمعون بين «تقديس الوطن» والاسلام و يرون عدم التعارض بينهما.

وعبدالرحمان البزاز احد رؤساء الوزراء السابقين في العراق ألف كتاباً بعنوان «الاسلام والقومية العربية» ادّعى فيه، ان المسلم العربي يمكن ان يكون قومياً عربياً!

لكن القومية والاسلام عقيدتان متباينتان ومتعارضتان. فمن اتجه الى احداهما إبتعد عن الأخرى وكيف يمكن الجمع بين نقيضين؟! وهل يمكن مزج الماء بالنار؟! وكيف يمكن التقرب لقطب ما، دون الابتعاد عن القطب المقابل؟!

«هل يجتمعان معاً؟ اليس منكم رجل رشيد؟»

وطالما بقي تصورنا اسلامياً في جميع شؤون الحياة، فسنبقى مسلمين فهل يمكن ان تكون لنا عقيدة اخرى في مجال الاجتماع والسياسية بالتخلي عن بعض تعاليم الاسلام ونعتبر أنفسنا بالرغم من ذلك مسلمين!

«افتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض...»

(البقرة: ٨٥)

«فما جزاء من يفعل ذلك الا خزي في الحياة الدنيا... ويوم القيامة يردون الى اشد العذاب».

(البقرة: ٨٥)

فلا يمكن ان يعتنق الانسان عقيدة مستوردة واجنبية ويحافظ —في الوقت نفسه— على أصالته الاسلامية. ان مايسمّى «بالقومي المسلم» له اساس هشٌّ كما هوالحال بالنسبة لما يسمى «بالشيوعي الموحد»!! او «القومي الأممي»! علماً ان هذه التسميات هي من ابتكار وصناعة الامبريالية (الرأسمالية) والماركسية.

والعقيدة الاسلامية مناهضة «للقومية» والعكس صحيح، وكلما انتشر الفكر الاسلامي، سارت القومية نحو الزوال، وكلما امتد الفكر القومي اضمحل تأثير الاسلام، وعلى الفرد اعتناق احد «المذهبين» والاخلاص له.

فلا يمكن ركوب سفينتين متعاكستي الاتجاه والمسير.

ان الادعاء بالاسلامية واعتناق المذهب القومي في آن واحد. مصدره اما الجهل او غرض في النفس والنفاق، او هو نتيجة لعدم المقدرة على فهم هوية الاسلام الحقيقية وهوية القومية.

إن الشاعر والفيلسوف الاسلامي الكبير اقبال لاهوري نظم قصيدة مخاطباً مولانا حسين احمد —احد العلماء الكبار ومن قادة القومية الهندية— أكد فيها ان الشخص الذي يعتبر «الوطن» و «القومية اساساً للوحدة» لايفهم تعاليم نبي الاسلام(ص) وعلى الانسان الابتعاد عن «القومية» وعن جميع الافكار الغربية والشرقية المستوردة، والالتحاق بركب الاسلام وإن لم يفعل ذلك فانه في الواقع ملتحق باعداء الاسلام لا محالة.

فالاسلام «وحدة متكاملة»، فاما ان ترفضه بشكل كامل او تقبله وتعتنقه بالكامل، ولايمكن اعتناق عقيدتين في آن واحد. يقول إقبال لاهوري مامعناه:

«إن ترديد النشيد الوطني يعني تجاهل مقام محمد النبي العربي. فأخبر الرسول —الذي جاء بدينه الى العالم كله— أنه إذا لم يدرك دينه فسيصبح مذهبا قومياً وعنصريا».

لذلك يجب علينا تحطيم جميع اصنام العنصرية والقومية وتكفيرها. ولنكن ابراهيميّين ونرجع لاصالة عقيدتنا ورسالتنا. ويجب ان يكون الانسان المسلم الموحد بهذا الشكل، لنجعل من الله المحك والمعيار، بدلاً من «التراب» والدم واللغة.

«ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للايمان ان آمنوا بربكم فآمنا، ربنا فاغفرلنا ذنوبنا وكفّر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الابرار».

(آل عمران: ١٩٣)

ان الواجب الاسلامي يحتم علينا محاربة جميع العقائد ابتداءاً من القومية وانتهاءاً بالشيوعية والليبرالية، فكرياً و سياسيّاً، دون هوادة الى أن تستقر «العقيدة الالهية» و تعم جميع مجالات الحياة الانسانية.

«وقاتلوهم حتىٰ لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله»

(الانفال: ٣٩)

ان القومية والشيوعية لاتشكلان علاجاً للانسان المريض المعاصر ولاحلاً للمجتمعات البشرية غير المتعادلة المعاصرة.

فالحل الوحيد والمنجي يكمن في سيادة المجتمع الموحّد وظهور الانسان الموحّد. وهذا لايتيسر إلا بالعقيدة القرآنية السمحاء.

* * *

منظمة الاعلام الاسلامي
قسم العلاقات الدولية
طهران- ص.ب. ٢٧٨٢
الجمهورية الاسلامية في ايران

السعر : ١١٠ ريال

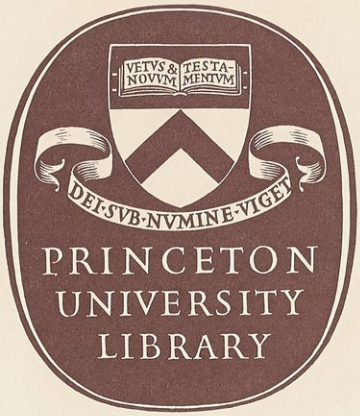

WERT
BOOKBINDING
Grantville, Pa.
May-June 1988
We're Quality Bound

Princeton University Library
32101 058188119